مختصر سبيل الرشاد

شرح تحفة الأولاد

البشائح

في توحيد رب العباد

جمع ونظم وشرح

محمد بن عيد الشعباني

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة

١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م

مكتبة السنة
بالقاهرة

رقم الإيداع : ٢٢٢٥٢ / ٢٠٠٦
طبع بدار **نوبار** للطباعة



مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم

القاهرة : ٨١ شارع البستان – ميدان عابدين «ناصية شارع الجمهورية»
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ – ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ – تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ – الرمز البريدى : ١١٥١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) مقدمة

١- يَقُولُ رَاجِي رَحْمَةِ الرَّحْمَنِ ... مُحَمَّدُ بْنُ عِيدٍ الشَّعْبَانِي
٢- الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الإنعامِ ... لا سِيَّما بِنِعْمَةِ الإسْلامِ
٣- ثُمَّ صَلاةُ اللَّهِ مَعْ سَلامِهِ ... عَلَى النَّبِيِّ الْمُصطَفى وآلِهِ
٤- وَبَعْدُ هَذَا النَّظْمُ في التَّوحيد ... أَوَّلِ وَاجِبٍ عَلَى الْعَبِيدِ
٥- مِفْتاحُ بَابِ جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ ... لِذاكَ قَدَّمُوهُ عِنْدَ الدَّرْسِ
٦- سَمَّيْتُهُ بِتُحْفَةِ الأَوْلادِ ... لِيُصْبِحُوا مِنْ خِيرةِ الْعبَّادِ
٧- أَرْجُو بِهِ التَّيْسِيرَ والقَبُولا ... وَأَنْ يَكُونَ لِلهُدَى سَبِيلا

(٢) بَابُ فَضْلِ التَّوحِيد

٨- أَوَّلُ وَاجِبٍ هُوَ التَّوحِيدُ ... وَمَنْ يُحَقِّقْهُ فَهْوَ السَّعيدُ
٩- يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ جُنَّةْ ... وَهْوَ سَبِيلُ مَنْ يُرِيدُ الجَنَّةْ
١٠- شَرْطُ القَبُولِ يَا بُنَيَّ لِلْعَمَلْ ... دَعَا إِلَيْهِ قَوْمَهُمْ كُلُّ الرُّسُلْ
١١- وَيَغْفِرُ اللهُ بِهِ الذُّنُوبَا ... سُبْحَانَ مَنْ يُقَلِّبُ الْقُلُوبَا

(٣) بَابُ أقسَامِ التَّوحِيدِ

١٢- ينقسمُ التوحيدُ في الإسلامِ إلى ثلاثةٍ مِنَ الأَقْسَامِ

١٣- أَوَّلُهَا التَّوْحِيدُ في العِبَادة وهْو أَهَمُّهَا مَعْنَى الشَّهادةْ

١٤- وَرُكْنُهَا النفْيُ مَعَ الإِثْبَاتِ فَاعْلَمْ هَدَاكَ اللَّهُ لِلثَّبَاتِ

١٥- وَحَقُّهَا الْولاءُ والبَرَاءُ والْكُفْرُ بِالطَّاغُوت يَا أَبْنَاءُ

١٦- فَلَيْسَ غَيْرُ اللَّه يَسْتَحِقُّ عِبَادَةً وَاللَّهِ فَهْوَ الْحَقُّ

١٧- وَكُلُّ مَا يُحبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى عِبَادَةٌ إنْ سُنَّةً أَوْ فَرْضَا

١٨- كَالنَّذْرِ والذَّبْحِ وَكَالدُّعَاءِ والبِرِّ وَالْخَوفِ مَعَ الرَّجَاءِ

١٩- وَبِالرُّبُوبِيَّة قِسْمٌ آخَرُ بِأَنَّهُ لِلْخَلْقِ رَبٌّ فاطِرُ

٢٠- والثَّالِثُ الأسماءُ والصِّفَاتُ سَبِيلُهُ التَّنْزيهُ وَالإِثْبَاتُ

٢١- فَاللَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ قَدِ اسْتَوى وَوَجْهُهُ في جَنَّةِ الْخُلْدِ يُرى

٢٢- في ثُلُثِ اللَّيلِ الأخيرِ يَنْزِلُ تُعْطِي يَدَاهُ كَرَمًا مَنْ يَسْأَلُ

٢٣- كَلامُهُ الْقُرْآنُ مِنْ صِفَاتِهِ كَعِلْمِهِ وَسَمْعِهِ حَيَاتِه

٢٤- وكُلُّ وَصْفٍ جَاءَ في الْقُرآنِ أو صَحَّ عَنْ نَبِيِّهِ الْعَدْنَانِ

٢٥- نُثْبِتُ مَعْنَاهُ بَغَيْرِ كَيْفِ وَغَيْرِ تَعْطِيلٍ وَغَيْرِ نَفْيِ

(٤) بَابُ الإسلامِ

٢٦- مِنْ خِمْسَةٍ قَدْ بُنِيَ الإِسْلَامُ شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ والصِّيَامُ
٢٧- والْحَجُّ والزَّكَاةُ والصَّلَاةُ تَكَاسُلًا يَتْرُكُهَا الْعُصَاةُ
٢٨- وَكُفْرُهُ فِي الشَّرْعِ كُفْرٌ عَمَلِي مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بِمُسْتَحِلِّ

(٥) بَابُ الإيمَانِ

٢٩- وَقَوْلُ أَهْلِ الْحَقِّ في الإيمانِ قَوْلٌ وَأَعْمَالٌ عَلَى أَرْكَانِ
٣٠- باللَّهِ والملائِكِ الأبرارِ وَالكُتْبِ والرُّسْل وَبالأقدَارِ
٣١- وَالسَّادِسُ الإيمانُ بالْقِيَامةِ فَاعْلَمْ فإن الْعِلْمَ دَرْبُ الْجَنَّةِ
٣٢- بِضْعٌ وَسَبْعونَ مِنَ الخِصالِ أَعْظَمُهَا شَهَادَةُ الْجَلالِ
٣٣- يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ في القُلُوبِ كَذلِكُمْ يَنْقُصُ بِالذُّنُوبِ
٣٤- وَيُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنَ النِّيرانِ مِثْقَالُ ذَرةٍ مِنَ الإيمانِ

(٦) بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

٣٥- وَالشِّرْكُ يَا بُنيَّ لَيْسَ يُغْفَرُ أَقْبَحُ ذَنْبٍ في الوَرَى وَأَكْبَرُ
٣٦- أَوَّلُ مَا عَنْهُ الإلهُ قَدْ نَهَى أَخْوَفُ مَا يَخَافُهُ أُولو النُّهَى

٣٧- وَمُوجِبٌ لِلْخُلْدِ في جَهَنَّما وَمُحْبِطُ الأعمال عَنْ بَابِ السَّمَا

(٧) بَابُ تَعْرِيفِ الشِّركِ

٣٨- والشِّرْكُ أَنْ تَدْعُوَ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَ مَن جَلَّ عَنِ الأشْبَاهِ

٣٩- أَوْ صَرْفُ أي شيء مِنْ عِبَادَةْ لِـغَـيْـرِهِ لـو كَـانَ بِـالإِرَادَةْ

٤٠- أَوْ لُبْسُ حَلْقَةٍ وَخَيْطٍ للشِّفَا أَوْ وَدْعَةٍ دَعَا عَلَيْهِ الْمُصْطَفَى

٤١- وَمَنْ بِقَبْرِ صَالِحٍ تَبَرَّكَا أَوْ طَافَ حَوْلَهُ يَكُونُ مُشْرِكَا

٤٢- أَوْ كَانَ هَازِئًا بِحُكْمِ اللَّهِ أَوْ سَـاخِـرًا مِـنْ عَـابِـدٍ أَوَّاهِ

٤٣- أَوْ ذَابِحًا وَمُوفِيًا بِنَذْرِ أَوْ مَسْتَعِيذًا غَيَرَهُ مِنْ ضُرِّ

٤٤- أَوْ كَانَ رَاقِيًا بِمَا لا يُفْهَمُ كَـذَاكَ يَـا أولاديَ الـتَّـمَـائِـمُ

(٨) بَابُ سَبَبِ الشِّرك

٤٥- وَسَبَبُ الشِّرْكِ هُوَ الْغُلُوُّ فذُو الصَّلاحِ عِنْدهُمْ مَدْعُوُّ

٤٦- أو يعبدون اللّه عِنْدَ قَبْرِهِ تَـبـرُّكًـا في زَعـمِـهِـمْ بِـسِـرِّهِ

٤٧- وَيَبْتَنُونَ فَوْقَهَا المساجِدا وَيَـفْـعَـلُـونَ فِـعلَ مِـنْ تَـهـوَّدَا

٤٨- وَذَاكَ إِخْبَارٌ مِنَ الْمَصْدُوقِ مُـحـذِّرًا بِـمَـنْـطِـقِ الـشَّـفِـيـقِ

٤٩- حَيْثُ يَقُولُ تَتَّبِعُنَّ السَّنَنْ قِيلَ الْيَهُودُ والنَّصارَى؟قال: من؟!

(٩) بَابُ من الشرك التَوَكُّلِ على غير الله

٥٠- وَعَمَلُ الْقَلْبِ هُوَ التَّوكُلُ وَهْوَ عَلَى نَوعينِ فِيمَا يُنْقَلُ
٥١- كِلَاهُمَا شِرْكٌ فَشِرْكٌ أَصْغَرُ عَلَى الَّذي يَعِيشُ فِيمَا يَقْدِرُ
٥٢- والأكبرُ الثاني عَلَى الأَمْواتِ فَعَوِّدِ الْقَلْبَ عَلَى الإِخْبَاتِ

(١٠) بَابُ التَّوَسُّلِ

٥٣- ثُمَّ التَّوسُّلُ عَلَى نَوْعَيْنِ أَوَّلُهَا الصَّحيحُ دُونُ مَيْنِ
٥٤- بِاللّهِ والأسماءِ والصّفاتِ وَمِثْلُهُ مَا كانَ بِالطَّاعاتِ
٥٥- والثَّانِي في التَّوسُّل الشِّركيُّ بِأَيِّ مَخْلُوقٍ وَلَوْ نبيُّ

(١١) بَابُ طَاعَةِ الْعُلَمَاءِ والأُمَراءِ في معصية اللّه

٥٦- وَمَنْ أَطَاعَ السَّادةَ العُلَماء في غَيْرِ مَعْروفٍ أَوِ الأمراءَ
٥٧- يَجْعَلُهُمْ آلِهَةً كالصُّوفي وَإِنَّمَا الطَاعَةُ في الْمَعْرُوفِ
٥٨- في آيَة التَّوبَةِ وهْيَ اتَّخذُوا دَلِيلُ مَا أَقُولُ فِيمَا أَخَذُوا

(١٢) بَابُ أُمُورِ الْجَاهِلِيةِ

٥٩- وأَرْبَعٌ في أُمَّةِ الْمَعْصُومِ مِنْهُنَّ الاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ
٦٠- وَالنَّوْحُ ثُمَّ الْفَخْرُ بِالأَحْسَابِ وَمِثْلُهُنَّ الطَّعْنُ في الأَنْسَابِ
٦١- وَكُلُّهَا أُمُورٌ جَاهِلِيَّةْ كَالْحُكْمِ وَالظَّنِّ مَعَ الْحَمِيَّةْ
٦٢- وَيُكْمِلُ الثَّلاثَةَ السُّفُورُ قَدْ أَفْلَحَ الدَّاعِيَةُ الصَّبُورُ
٦٣- إِذْ لَا تَزَالُ فِرْقَةٌ مَنْصُورَةْ مِنْ أُمَّةِ الرَّسُولِ في الْمَعْمُورَةْ

(١٣) بَابُ السِّحْرِ

٦٤- والجِبْتُ والسِّحْرُ هُمَا سِيَّانِ وَكُفْرُ مُسْتَعْمِلِهِ قَوْلَان
٦٥- دَلِيلُ كُفْرِهِ أَتَى في البَقَرَةْ وَحَدُّ سَاحِرٍ بِالسَّيْفِ نَحْرَه
٦٦- وَهْوَ حَقِيقَةٌ وَبِالإِجْمَاعِ كَالصَّرْفِ وَالْعَطْفِ عَلَى أَنْوَاعِ
٦٧- وَالنُّشْرَةُ اعْلَمْهَا فَحَلُّ السِّحْرِ تَجُوزُ إِنْ كَانَتْ بِآيِ الذِّكْرِ
٦٨- وَإِنْ تَكُنْ بالسِّحرِ لَا تَحِلُّ فَإِنَّهَا شِرْكٌ يَقُولُ الْكُلُّ
٦٩- وَاللّٰهُ يَخْتَصُّ بِعِلْمِ الْغَيْبِ وَمُدَّعِيهِ كَافِرٌ بِالْكُتْبِ
٧٠- وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا صَلَاتُهُ مَرْدُودَةٌ لَوْ طَافَا

(١٤) بَابُ التَّطَيُّرِ

٧١- وَتَحْرُمُ الطِّيَرَةُ وَالتَّشَاؤُمُ ... وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا بَلْ يُقْدِمْ

٧٢- مُرَدِّدًا دُعَاءَهَا يُحَوْقِلُ ... وَإِنَّمَا يُذْهِبُهَا التَّوَكُّلُ

٧٣- وَشِرْكُ مَنْ تَرُدُّهُ قَدْ قَالُوا ... وَيُعْجِبُ الرَّسُولَ مِنْهَا الفَالُ

(١٥) بَابُ التَّنْجِيمِ

٧٤- ثُمَّ النُّجُومُ زِينَةُ السَّمَاءِ ... وَرَجْمُ شَيْطَانٍ عَنِ الأَنْبَاءِ

٧٥- وَلِلْهُدَى عَلَامَةٌ عَلَى الطُّرُقْ ... فَمَنْ يُحَاوِلْ غَيْرَهُ فَمَا صَدَقْ

٧٦- وَعِلْمُهَا نَوْعَانِ فَالتَّسْيِيرُ ... أَجَازَ مَا نَحْتَاجُه الْجُمْهُورُ

٧٧- وَالثَّانِ عِلْمٌ بَاطِلٌ مُحَرَّمُ ... يُعْرَفُ بالتَّأْثِير فِيمَا يُزْعَمُ

(١٦) بَابُ الشَّفَاعَةِ

٧٨- وَبَعْد فَالشَّفَاعَةُ لَهَا قِسْمَانِ ... كِلَاهُمَا في مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

٧٩- مَنْفِيَّةٌ وَهْيَ عَنْ اهْلِ الشِّرْكِ ... وَلَيْسَ في بُطْلَانِهَا مِنْ شَكِّ

٨٠- ثَانِيهُمَا شَفَاعَةٌ بِإِذْنِهِ ... لِمَنْ يَكُونُ مُؤْمِنًا بِدِينِهِ

٨١- دَلِيلُهَا في آيةِ الكُرسيِّ ... مِثَالُهَا شَفَاعَةُ النَّبِيِّ

٨٢- لَهُ شَفَاعَاتٌ كَفَضِّ الْمَوْقِفِ لِيَدْخُلَ الْجَنَّةَ كُلُّ مُقْتَفِي

(١٧) بَابُ الْهِدَايَةِ

٨٣- ثُمَّ الْهِدَايَةُ هِدَايَتَانِ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ لِلإِحْسَانِ

٨٤- وَتِلْكَ يَخْتَصُّ بِهَا الْحَمِيدُ يَهْدِي بِهَا لِلْحَقِّ مَن يُرِيدُ

٨٥- وَبَعْدَهَا هِدَايَةُ الإِرْشَادِ في سُورةِ الشُّورَى أَتَتْ وَصَادِ

(١٨) بَابُ الشِّرْكِ الأصغرِ

٨٦- وَالدِّين مَبْنَاهُ عَلَى الإِخْلَاص وَضِدُّهُ الشِّرْكُ بِلَا مَنَاصِ

٨٧- مِثْلُ صَلَاةِ ذَلِكَ المُرَائِي يُطِيلُ حُسْنَهَا لأَجْلِ الرَّائي

٨٨- وَمِثْلُ إِقْسَامٍ بِغَيْرِ اللَّهِ وَقَوْلِ لَوْلَا الْكَلْبُ والأَشْبَاهِ

٨٩- وَقَوْلُ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَا تَجُوزُ لَا كَالْوَاو إِذْ رَتَّبْتَا

(١٩) بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ

٩٠- وَمَنْ تَسَمَّى قَاضِيَ الْقُضَاةِ أَوْ نَحْوَه مِنَ الْمُسَمَّيَاتِ

٩١- يَنْفِي كَمَالَ الذُّلِّ والتَّوْحِيدِ وَأَخْنَعُ الأَسْمَاءِ لِلْعَبِيدِ

٩٢- قَدْ غَيَّر النبيُّ مِنْ أَبِي الْحَكَمْ وَكُلُّ مَا عُبِّدَ لِلْخَلْقِ حَرُمْ

٩٣- وَرَبُّنَا الْعَظِيمُ والسَّلَامُ فَلَا تَقُلْ عَلَى اللَّهِ السَّلَامُ
٩٤- وَلَا يُقالُ اغْفِرْ لي إنْ أَرَدْتَا سُبحَانَهُ وَلْتعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ
٩٥- وَلَا يُقالُ عَبْدِي وأَمَتِي وَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَاثْبُتِ
٩٦- وَلَا يُرَدُّ بِاللَّهِ السُّؤَالُ بِوَجْهِهِ فِي الْجَنَّةِ السُّؤَالُ
٩٧- فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا يَسَّرَهْ وَاللَّهَ أَسْأَلُهُ أَنْ يَنْشُرَهُ
٩٨- وَأَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ وَنَافِعًا مُخْتَصَرًا فِي وَجْهِهِ
٩٩- وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ والتَّسْلِيم عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الكَرِيمِ
١٠٠- مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَكُلِّ تَابِعٍ وَمُؤْمِنٍ بِهِ

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، الحمد لله على نعمة لا إله إلا الله ، من فاز بها فقد فاز ، ومن حققها فقد نجا ، بها قامت السماوات والأرض ، وأرسلت الرسل للدعوة إليها وانقسم الخلق بها إلى مؤمن تقي وهم أهلها أو كافر شقي وهم أعداؤها ، والصلاة والسلام على خير نبي دعا إليها وجاهد لرفعها نبينا محمد ﷺ الذي رفع الله ذكره فقرن الشهادة برسالته إلى الشهادة بوحدانيته ؛ فلا تقبل إحداهما دون الأخرى ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن علم التوحيد هو أهم العلوم وأفضلها على الإطلاق بلا نزاع بين أهل العلم المعتبرين ، وهو واجب على كل مسلم ومسلمة لتعلقه بتوحيد الله عز وجل الذي هو مفتاح الجنة ، فمن حقق التوحيد

فتحت له الجنة ومن لم يأت به فإلى النار وبئس المصير .

لذلك كان علينا أن نهتم غاية الاهتمام بعلم التوحيد ، ولا سيما الاهتمام بتعليمه لأولادنا منذ نشأتهم لينشأوا في التوحيد الخالص ولا يعيشوا جاهلين به كما ربما نكون قد عشنا ، فنعوض أبناءنا ما ربما نكون فقدناه في نشأتنا ، ولا نستهين بالصغار وحفظهم فإن ذاكرتهم وحفظهم أقوى من الكبار بكثير ، واستعدادهم يشجع على الاهتمام بهم ولكنهم يفتقدون التوجيه ، فإذا لم يوجهوا لحفظ القرآن الكريم والعلم الشرعي فسيحفظون ما لا فائدة فيه لا دنيا ولا أخرى .

ولقد كان سبب نظمي لهذا المتن سببًا عجيبًا وهو أني غرت على التوحيد ، حيث شرعت أحفظ ابنتي ذات الخمس سنوات متن تحفة الأطفال في تجويد القرآن اختبارًا مني لمدى استعدادها لحفظ المتون في هذا السن وكانت المفاجأة أنها حفظت المقدمة وبدأت تطلب حفظ المزيد ، ولا شك أن لسهولة المتن دوره في سرعة الحفظ والإقبال عليه- فرحم الله الإمام الجمزوري رحمة واسعة- ثم تأملت وفكرت لماذا لا أبدأ بالتوحيد وهو أهم وأولى ؟

وكانت الإجابة : أين المتن المختصر الذي يكون كتحفة الأطفال

سهولةً ويسرًا لنحفظ أولادنا به علم التوحيد ؟

فغرت أن ينظم في التجويد تحفة للأطفال ، ولا ينظم في التوحيد تحفة للأطفال ، فاستعنت الله وبدأت أنظم مما حصلته في هذا العلم متوخيًا السهولة والاختصار على منهج أهل السنة رحمهم الله ، وسبحان الله كان الباب ينظم من أول مرة موزونًا فلا يحتاج إلى تعديل أو تغيير وانتهيت منه في ثلاثة أيام ، وقد سميته بتحفة الأولاد في توحيد رب العباد ، وقد استفدت مادته العلمية من كتب التوحيد المعتبرة عند أهل العلم ككتاب « التوحيد » للإمام ابن خزيمة رحمه الله ، وكتاب « شرح العقيدة الطحاوية » لابن أبي العز الحنفي رحمه الله ، وكتاب « مختصر العلو للعلي الغفار » للإمام الذهبي رحمه الله ، وكتاب « السنة » للإمام ابن أبي عاصم رحمه الله ، وكتاب « شرح صحيح مسلم » للإمام النووي رحمه الله ، وكتاب « فتح الباري » للإمام ابن حجر رحمه الله ، وكتاب « القول المفيد » للشيخ ابن عثيمين رحمه الله ، وكتاب « حراسة الفضيلة » للشيخ بكر بن عبد الله رحمه الله ، وكتاب « فتنة التكفير » وكتاب « حكم تارك الصلاة » وكلاهما للشيخ الألباني رحمه الله ، وكتب التفسير

والحديث وغيرها من كتب الأئمة رحمهم الله .

وها أنذا أشرع في ذلك مستعينًا بالله تعالى راجيًا منه التيسير والقبول ، وأن ينفع به المسلمين وأبناء المسلمين ، وأن ألقى الله خادمًا لهذا الدين بشيء من العلم أكفر به عن ظلمي لنفسي ومعصيتي لربي ، والحمد لله على عفوه وكرمه ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

(١) المقدمة

١- يَقُولُ رَاجِي رَحْمَة الرَّحْمَنِ مُحَمَّدُ بْنُ عِيدٍ الشَّعْبَانِي

٢- الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الإنعامِ لا سِيَّما بِنِعْمَةِ الإسْلامِ

٣- ثُمَّ صَلاةُ اللَّهِ مَعْ سَلامِهِ عَلَى النَّبِيِّ الْمُصطَفى وآلِهِ

(المقدمة) في ضبطها وجهان : الأول : كسر الدال على أنها اسم فاعل لأنها تقدم لما بعدها وهو الأشهر والأكثر استعمالاً .

الثاني : فتح الدال على أنها اسم مفعول وكأنها ألفت بعد الانتهاء من المادة العلمية ثم قدمت لتمهد لها وتبين مقاصدها .

وقد اشتملت المقدمة على حمد الله عز وجل والثناء عليه بنعمه التي لا تحصى ، لا سيما نعمة الإسلام والتوحيد لما يترتب عليها من دخول الجنة والنجاة من النار ، ثم الصلاة على النبي محمد وعلى آله وأصحابه ، والصلاة من الله على رسوله هي ثناؤه عليه في الملأ الأعلى ، ومعنى (لا سيما) أي : خصوصًا ، و(مع) تقرأ بإسكان العين .

٤- وَبَعْدُ هَذَا النَّظْمُ في التَّوحيدِ أَوَّلِ وَاجِبٍ عَلَى الْعَبِيدِ

٥- مِفْتاحُ بَابِ جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ لِذاكَ قَدَّمُوهُ عِنْدَ الدَّرْسِ

٦- سَمَّيْتُهُ بِتُحْفَةِ الأَوْلادِ لِيُصْبِحُوا مِنْ خِيرةِ الْعبَّادِ
٧- أَرْجُو بِهِ التَّيْسِيرَ والقَبُولا وَأَنْ يَكُونَ لِلـهُدَى سَبِيلا

سيأتي بيان فضل التوحيد الذي وضع هذا النظم لاختصار أصوله ، وتسهيل فصوله في الباب الآتي ، ويكفي في فضله : أنه المفتاح الذي يفتح به باب الجنة ، فلا تفتح إلا للموحدين ، ولذلك قدمه الأئمة على غيره من العلوم عند الدرس والتعلم وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بل على كل الناس بلا استثناء ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالواجب على الدعاة أن يبدءوا دعوتهم به ، والواجب على المتعلمين أن يبدءوا تعلمهم به ، كما قال الله عز وجل : ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩] ، فبدأ الله عز وجل بعلم التوحيد قبل القول والعمل .

و(مفتاح) بكسر الميم واحد المفاتيح ، و(العباد) بكسر العين وتخفيف الباء جمع عبد ، وعليه تسمية المتن ، أو بضم العين وتشديد الباء جمع عابد ، وهذا هو الغاية من هذا المتن وغيره من كتب أهل العلم ، ألا وهو العمل ؛ فمن تعلم ليعمل ؛ علمه الله عز وجل ووفقه

للعمل ، ومن تعلم ليستكثر فتح عليه باب الجدل ، فالأعمال بالنيات ، كما روى البخاري عن عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه على المنبر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمالُ بالنياتِ ، وإنما لكل امرئ ما نَوى ، فَمَن كَانت هجرتهُ إلى دُنيا يصيبُهَا أو إلى امرأةٍ يُنكحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه » . نسأل الله تعالى أن يصلح نيتنا ويجعلها خالصة لوجهه .

* * *

(٢) بَابُ فَضْلِ التَّوحِيد

٨- أَوَّلُ وَاجِبٍ هُوَ التَّوحِيدُ وَمَنْ يُحَقِّقْهُ فَهْوَ السَّعِيدُ
٩- يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ جُنَّةْ وَهْوَ سَبِيلُ مَنْ يُرِيدُ الجَنَّةْ

التوحيد في اللغة : مصدر من وحد الشيء إذا جعله واحدًا .

وفي الشرع : إفراد الله سبحانه بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، وفضائل التوحيد في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ لا تحصى كثرة ، **فمن فضائل التوحيد وأهميته :**

١- **أنه أول الواجبات وأوجبها** ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] فأول ما أمر الله به في هذه الآية هو التوحيد لأهميته وفضله ، ومثلها قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾[الإسراء: ٢٣] ، فأول ما قضى الله وأمر به هو التوحيد لأهميته وفضله .

ومن الأحاديث الدالة على فضائل التوحيد وأهميته حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» (البخاري: ١٤٩٦). فأمره ﷺ بالبدء بالتوحيد لأنه أول الواجبات وأهم المفروضات.

٢- من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب؛

لقوله ﷺ في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب: «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون» (البخاري: ٥٧٠٥). وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته

وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق : أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء » (مسلم : ١٤٩) .

وتحقيق التوحيد : هو تخليصه من الشرك ، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة : **الأول** : العلم ؛ فلا يمكن أن تحقق شيئًا قبل أن تعلمه ، قال الله عز وجل : ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد : ١٩] ، فبدأ الله عز وجل بعلم التوحيد قبل القول والعمل ، وعن عثمان قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » (مسلم : ١٤٥) .

الثاني : الاعتقاد ، فمن علم ولم يعتقد واستكبر ؛ لم يحقق التوحيد ، قال الله تعالى عن الكافرين : ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص : ٥] فما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية .

الثالث : الانقياد ، فمن علم واعتقد ولم ينقد ؛ لم يحقق التوحيد ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات : ٣٥، ٣٦] ، ولذلك لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة

فقال رسول الله ﷺ : « يا عم قل : لا إله إلا الله ؛ كلمة أشهد لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب : أترغب عن ملة عبد المطلب . فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدا له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب . وأبئ أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : « أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » . فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص : ٥٦] (مسلم : ١٤١) فمن حصل هذا وحقق التوحيد ؛ فله الجنة بغير حساب .

٣- **أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ هم الموحدون** . للحديث الذي رواه (البخاري : ٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال قيل[١] : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/١٩٣) : « قوله : (أنه قال : قيل =

ﷺ : « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله ، خالصا من قلبه أو نفسه » .

٤- **التوحيد وقاية من عذاب الله وجنة من عذاب جهنم وهو حق الله على العباد** ، للحديث الذي رواه (البخاري : ٥٩٦٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل فقال : « يا معاذ » . قلت : لبيك رسول الله وسعديك . ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ » . قلت : لبيك رسول الله وسعديك . ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ » قلت : لبيك رسول الله وسعديك . قال : « هل تدري ما حق الله على عباده ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » . ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » . قلت : لبيك رسول الله وسعديك . فقال : « هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . قال :

= يا رسول الله) كذا لأبي ذر وكريمة ، وسقطت (قيل) للباقين ، وهو الصواب ، ولعلها كانت (قلت) فتصحفت ، فقد أخرجه المصنف في الرقاق كذلك ، وللإسماعيلي : (أنه سأل) ، ولأبي نعيم : (أن أبا هريرة قال : يا رسول الله) » .

« حق العباد على الله أن لا يعذبهم » (٥٩٦٧) ، فحق الله على العباد هو توحيده وعدم الإشراك به وهو حق واجب عليهم ، وأما حق العباد على الله فهو حق تفضل الله به عليهم منة وكرما .

٥- **التوحيد هو سبيل الجنة ومفتاح بابها الأعظم** ؛ لقوله ﷺ لأبي هريرة : « اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة » . (رواه مسلم : ١٥٦) .

وقد أعطاه ﷺ نعليه تأكيدًا لصدقه ، وعن الصنابحي ، عن عبادة بن الصامت ، أنه قال دخلت عليه وهو في الموت فبكيت فقال : مهلًا لم تبك فوالله لئن استشهدت لأشهدن لك ولئن شفعت لأشفعن لك ولئن استطعت لأنفعنك ثم قال : والله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثا واحدًا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله حرم الله عليه النار » . (رواه مسلم : ١٥١) .

و(جنه) في الأبيات بضم الجيم أي : وقاية ، وتقرأ بالهاء الساكنة للوقف عليها و(الجنة) بفتح الجيم فبينهما جناس في اللفظ .

١٠- شَرْطُ القَبُولِ يَا بُنَيَّ لِلْعَمَلْ دَعَا إِلَيْهِ قَوْمَهُمْ كُلُّ الرُّسُلْ
١١- وَيَغْفِرُ اللهُ بِهِ الذُّنُوبَا سُبْحَانَ مَنْ يُقَلِّبُ الْقُلُوبَا

٦- **من أهمية التوحيد وفضائله أنه شرط لقبول باقي الأركان وكل الأعمال** ، فلا يقبل عمل بغير توحيد ، ولا ينفع بر بغير توحيد لقول الله عز وجل : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم : ١٨] ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور : ٣٩] ، فالكافر الذي لم يحقق التوحيد مهما فعل من بر لا يقبل منه وإنما يجازيه الله بها في الدنيا لأنه لم يأت بشرط القبول للعمل وهو التوحيد .

عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعمُ المسكين فهل ذاك نافعه ؟ قال : « لا ينفعهُ ، إنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » . (مسلم : ٥٤٠) .

٧- **التوحيد هو دعوة كل رسول إلى قومه** ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ

ٱلطَّـٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] ، فكل رسول بدأ بدعوة قومه إلى التوحيد لأهميته وفضله .

٨- **ومن فضائل التوحيد كذلك وأهميته أن الله عز وجل يغفر به الذنوب** ، كما قال تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] وكما قال تعالى في الحديث القدسي : « يا ابن آدم ! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا : لأتيتك بقرابها مغفرة » . (رواه أحمد: ٥/ ١٤٧، والترمذي: كتاب الدعوات، باب غفران الذنوب، وقال: « حسن غريب » . وكل هذه الفضائل توجب على المرء أن يقبل على تعلم التوحيد ، وتعليمه لأهله وأولاده ، كما توجب الخوف من عدم تحقيقه أو الثبات عليه ، لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فنسأل الله السلامة والثبات .

(٣) بَابُ أقسَامِ التَّوحِيدِ

١٢- ينقسمُ التوحيدُ في الإسلامِ إلـى ثـلاثـةٍ مِـنَ الأَقْـسَـامِ

قسم العلماء التوحيد إلى ثلاثة أقسام باستقرائهم لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وهي :

١- توحيد الربوبية .

٢- توحيد الألوهية .

٣- توحيد الأسماء والصفات .

وقد اجتمعت في قوله تعالى : ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] .

وقد بدأت بتوحيد الألوهية لأهميته فقلت :

١٣- أَوَّلُهَا التَّوْحِيدُ في العِبَادة وهْو أَهَمُّهَا مَعْنَى الشَّهادةْ

١٤- وَرُكْنُهَا النَّفْيُ مَعَ الإِثْبَاتِ فَاعْلَمْ هَدَاكَ اللَّهُ لِلثَّبَاتِ

أهم أنواع التوحيد الثلاثة هو توحيد الألوهية ويسمى أيضًا توحيد العبادة أو توحيد القصد والطلب ، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله إذ يلتقي معناهما **فمعنى الشهادة : لا معبود بحق إلا الله .**

وهي مكونة من ركنين: النفي والإثبات، فـ(لا إله): نفي لاستحقاق الألوهية عن كل ما سوى الله و(إلا الله): إثبات الإلوهية لله وحده، والإثبات بعد النفي أبلغ وأوكد من الإثبات المجرد.

ومعنى توحيد الألوهية: إخلاص العبادة لله وحده فلا يصرف شيء منها لغير الله، وهذا هو الغاية من الخلق.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

١٥- وَحَقُّهَا الْولاءُ والبَرَاءُ والْكُفْرُ بِالطَّاغُوت يَا أَبْنَاءُ

ومن حقوق هذا التوحيد وهذه الشهادة: الولاء والبراء، ومعنى الولاء: موالاة أهل التوحيد ومحبتهم ونصرتهم.

ومعنى البراء: التبرء من أعداء التوحيد وبغضهم وجهادهم بالقلب واليد واللسان في كل وقت وكل مكان؛ قال الله تعالى حاكيًا عن إمام الموحدين والحنفاء: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨].

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَد حَلاوةَ

الإيمانِ : أن يكونَ اللَّهُ ورسولهُ أحبَّ إليه ممَّا سَواهُما ، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يُحبهُ إلا للَّهِ ، وأن يَكْرَهَ أن يَعُودَ في الكُفرِ كما يَكرَهُ أن يُقذفَ في النارِ » . (البخاري : ١٦، ومسلم : ١٧٥) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحابيتم ؟ أفشوا السلام بينكم » . (مسلم : ١٠٥) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : « من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان- وإن كثرت صلاته وصومه- حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئًا » . رواه ابن جرير .

فمعنى الحديث : أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته إلا بأعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها ، وهي : الحب في الله ، والبغض في الله ، والولاء في الله ، والعداء في الله ، ولو كثرت صلاته وصومه ، وكيف يستطيع عاقل فضلا عن مؤمن أن يوالي أعداء الله ، فيرى أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه

بالنقائص والعيوب ، ثم يواليهم ويحبهم ؟ فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام الدهر كله ، فإنه لا يمكن أن ينال طعم الإيمان ، فلا بد أن يكون قلبك مملوءًا بمحبة الله وموالاته ، ويكون مملوءا ببغض أعداء الله ومعاداتهم ، وقال ابن القيم رحمه الله تعالى :

أَتُحِبُّ أَعْداءَ الحَبِيبِ وتَدَّعِي حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ في إمْكَانِ

ومن حقوق شهادة التوحيد ولوازمها : الكفر بالطاغوت كما قال الله تعالى : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل : ٣٦] ، **والطاغوت** : مشتق من الطغيان ، وهو صفة مشبهة ، والطغيان : مجاوزة الحد ؛ كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة : ١١] ؛ أي : تجاوز حده .

وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكره ابن القيم رحمه الله بأنه : ما تجاوز به العبد حده من متبوع ، أو معبود ، أو مطاع .

ومراده من كان راضيًا بذلك ، أما من لم يكن راضيًا كعيسى

ابن مريم أو الأولياء أو الصالحين الذين تعبد قبورهم في بعض البلاد بالنذر والدعاء فليس بطاغوت ، وإنما الطاغوت من عبده ، لأنه تجاوز به حده حيث نزله فوق منزلته التي جعلها الله له ، فتكون عبادته لمعبوده ، واتباعه لمتبوعه ، وطاعته لمطاعه طغيانًا لمجاوزته الحد بذلك ، فالمتبوع مثل : الكهان ، والسحرة ، وعلماء السوء . والمعبود مثل : الأصنام والأوثان والقبور التي تدعى من دون الله .

والمطاع مثل : العلماء والأمراء الخارجين عن طاعة الله وتحكيم شريعته ، فإذا اتخذهم الإنسان أربابًا يحل ما حرم الله من أجل تحليلهم له ، ويحرم ما أحل الله من أجل تحريمهم له ؛ فهؤلاء طواغيت ، والفاعل تابع للطاغوت ، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء : ٥١] .

١٦- فَلَيْسَ غَيْرُ اللَّه يَسْتَحِقُّ عِبَادَةً وَاللَّهُ فَهْوَ الْحَقُّ

هذا هو معنى : لا إله إلا الله ، ومعنى توحيد الألوهية الذي دلت عليه كما قدمنا ، فلا يستحق العبادة إلا الله لأنه لا إله حق إلا الله عز وجل وكل ما يعبد من دون الله فهي آلهة باطلة لا تملك

نفعًا ولا ضرًا .

فأكثر الناس اليوم يقولون لا إله إلا الله ، ولا يفهمون معناها الذي فهمه العرب الأولون أو يفهمون معناها على نحو خاطئ فيظنون معناها : لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله ، وإنما معناها الحق : لا معبود بحق إلا الله ، فلا يستحق العبادة إلا الله ، فمن دعا غير الله من ولي أو نبي أو نذر له وذبح له أو طاف بقبره فقد عبده من دون اللّـه وناقض بذلك قوله : لا إله إلا الله .

١٧- وَكُلُّ مَا يُحبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى عِـبَـادَةٌ إنْ سُـنَّـةً أَوْ فَـرْضَـا

١٨- كَالنَّذْرِ والذَّبْحِ وَكَالدُّعَاءِ والبِرِّ وَالْخَوفِ مَعَ الرَّجَاءِ

هذا هو معنى العبادة ، وهي اسم جامع لكل ما يحبه اللّٰه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة سواء كانت مسنونة أو مفروضة . كالنذر الذي يفرضه الإنسان على نفسه لله عز وجل من صيام أو صدقة ونحوها من العبادات فيجب الوفاء به إلا إذا كان في معصية الله أو فيما لا يملك الناذر ، فمن نذر لغير الله صومًا أو ذبيحةً أو صدقةً ونحوها فقد جعله شريكًا لله تعالى .

وكذلك الذبح عبادة كذبح الأضحية والهدي والعقيقة

ونحوها، فمن ذبح تقربًا لغير الله فقد أشرك بالله عز وجل قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، فكما لا تصلي إلا لله فلا تذبح إلا لله.

وقد كان المشركون ينذرون ويذبحون لآلهتهم من أنعامهم كما قال الله عز وجل منكرًا عليهم: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، واليوم عادت الجاهلية في بعض الجاهلين فيقولون عن بعض أنعامهم: هذه لأهل الله، فإذا قلت لهم: قولوا لله غضبوا وأبوا إلا الشرك، ويعنون بأهل الله من يعتقدون فيهم الولاية والتصرف في الكون بالنفع والضر من أهل القبور فالواجب على المسلمين أن يتعلموا دينهم ولا سيما التوحيد حتى لا يقعوا في الشرك الأكبر.

ومن العبادة كذلك : الدعاء، بل الدعاء هو العبادة كما في الحديث وكما قال الله تعالى عن إبراهيم وهو يعتزل قومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨] ، ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] ، فجعل الدعاء هو العبادة وعبر بكل واحد منهما عن الآخر وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ، فمن دعا غير الله لجلب نفع أو دفع ضر أو طلب مدد كأن يقول: مدد يا سيدي فلان، أو مدد يا ستنا فلانة أو مدد يا رسول الله، فقد أشرك بالله عز وجل وإنما المدد لا يطلب إلا من الله لأنه وحده هو القادر عليه، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] .

وكذلك البر: عبادة وهو اسم جامع للطاعات والقربات

كالذكر والإحسان وحسن الخلق كل ذلك من العبادات التي شرعها الله عز وجل ، وكذلك الخوف والرجاء عبادة بل هما للعبادات كالجناحين للطائر فالمسلم يعبد ربه رَهبًا ورَغبًا ، خوفا من عذابه ورجاءً في رحمته وثوابه ، كما قال تعالى عن عباده المرسلين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، فبالمحبة والرجاء يكون امتثال الأمر ، وبالخوف يكون اجتناب النهي .

١٩- وَبِالرُّبُوبِيَّة قِسْمٌ آخَرُ بِأَنَّهُ لِلْخَلْقِ رَبٌّ فاطِرُ

النوع الثاني من أنواع التوحيد : هو توحيد الربوبية ، ومعناه : إفراد الله عز وجل بالخلق والملك والتدبير : **فإفراده بالخلق** : أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله ، قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف : ٥٤] فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر ؛ إذ أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ، وقال تعالى : ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر : ٣] ، فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله ، لأن الاستفهام فيها مشرب معنى التحدي .

وإما إفراد الله بالملك : فأن نعتقد أنه لا يملك الخلق إلا

خالقهم ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ [آل عمران : ١٨٩] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون : ٨٨] .

وأما إفراد الله بالتدبير : فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده ؛ كما قال تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس : ٣١، ٣٢] .

وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بعث فيهم الرسول ﷺ بل كانوا مقرين به ، قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف : ٩] ، فيهم يقرون بأن الله هو الذي يدبر الأمر ، **وهذا النوع من التوحيد لا يكفي للدخول في الإسلام ولا في النجاة من النار ، بل لا بد معه من النوع الأول وهو توحيد العبادة ، لأنه هو الفيصل بين توحيد الموحدين وتوحيد المشركين** ، فالموحدون وحدوا الله في

ربوبيته وألوهيته فعبدوه وحده ولم يشركوا به شيئًا ، وأما المشركون فإن وحدوه في ربوبيته فقد أشركوا به في الألوهية فعبدوا معه الأولياء بالدعاء والخوف والرجاء كما قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

٢٠- والثَّالِثُ الأسماءُ والصِّفَاتُ سَبِيلُهُ التَّنْزِيهُ وَالإِثْبَاتُ

النوع الثالث من أنواع التوحيد: هو توحيد الأسماء والصفات ، ومعناه : إفراد الله عز وجل بما ثبت له من الأسماء الحسنى والصفات العلى على وجه الحقيقة ، بلا تمثيل ولا تكييف ولا تحريف ولا تعطيل .

فالمنهج الحق في أسماء الله وصفاته هو منهج أهل السنة والجماعة **وهو قائم على ركنين :**

١- تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين .

٢- إثبات أسماء الله وصفاته على ما يليق به سبحانه .

وعمدتنا في ذلك قوله عز وجل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فنزه عن مماثلة غيره ثم قال : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، فأثبت صفتي السمع والبصر ، فلله سمع ليس كسمع

المخلوقين، وله بصر ليس كبصر المخلوقين.

والكلام في باب الأسماء والصفات فرع عن الكلام في الذات كما قال الخطيب البغدادي رحمه الله فكما أن لله ذاتا ليست كذوات المخلوقين وله حياة ليست كحياة المخلوقين، فله علم ليس كعلم المخلوقين وله سمع ليس كسمع المخلوقين، وله وجه ليس كوجه المخلوقين وله يد ليست كيد المخلوقين وهكذا في سائر أسمائه وصفاته تبارك وتعالى.

٢١- فَاللَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ قَدِ اسْتَوى وَوَجْهُهُ في جَنَّةِ الْخُلْدِ يُرى

ومن صفات الله عز وجل الثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة، والتي أنكرها طوائف من المعتزلة والجهمية والصوفية: **صفة استواء الله على عرشه**، وقد أثبتها الله عز وجل في سبعة مواضع من كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]. ومعناها أن الله تعالى فوق عرشه بذاته بائن من خلقه لا تخفى عليه منهم خافية، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، وكما قال ﷺ:

« ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » . [رواه أبو داود والترمذي والحاكم] .

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله تعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم » . [أخرجه أبو داود وغيره] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « بين السماء والتي تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام وبين الكرسي والماء خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء ، والله فوق العرش ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم »[1] .

---

(١) قال الحافظ الذهبي في كتابه « العلو » : « رواه عبد الله بن الإمام أحمد في « السنة » له ، وأبو بكر ابن المنذر ، وأبو أحمد العسال ، وأبو القاسم الطبراني ، =

قوله : « والله تعالى فوق ذلك » . وقوله : « والله فوق العرش » هذا نص صريح بإثبات علو الله تعالى علوا ذاتيًا ، وأنه سبحانه فوق كل شيء ولا يحيط به شيء من مخلوقاته ، لا السماوات ولا غيرها ، وعليه فإطلاق لفظ الجهة نفيًا وإثباتًا لا نقول به ، ولكن نفصل ، فنقول : إن الله في جهة العلو ، لأن الرسول ﷺ قال للجارية : « أين الله ؟ » – و« أين » يستفهم بها عن المكان – فقالت : في السماء ، فأثبتت ذلك ، فأقرها النبي ﷺ عليه ، وقال : « اعتقها ؛ فإنها مؤمنة » فهو في جهة علو لا تحيط به ، ولا يمكن أن يقال إن شيئًا يحيط به ، لأننا نقول : إن ما فوق العرش عدم ليس ثَمَّ إلا الله سبحانه ، ولهذا قال : « والله تعالى فوق ذلك » .

وقد حَرَّفَ المعتزلة والجهمية معنى هذه الصفة وقالوا بأن (استوى) بمعنى (استولى) ففروا مما ظنوه تشبيهًا إلى ما هو أقبح إذ معنى (استولى) : أن له ندًا ينازعه العرش ، فإيهما غلب يقال له : استولى .

= وأبو الشيخ ، وأبو القاسم اللالكائي ، وأبو عمر الطلمنكي ، وأبو بكر البيهقي ، وأبو عمر بن عبد البر في تواليفهم ، وإسناده صحيح » .

أخرج اللالكائي في (السنة : ٦٦٦) عن ابن العربي أنه سئل عن معنى (استوى) ، فقال : هو على عرشه كما أخبر ، فقيل : يا أبا عبد الله معناه : استولى ، قال : اسكت ، لا يقال استولى على الشيء إلا إذا كان له مضاد فإذا غلب أحدهما قيل استولى . (جواهر القرآن ج : ٢، ص : ١٥) .

وهذه اللام التي زادوها نظير النون التي زادها اليهود لما قيل لهم : ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة : ٥٨] ، فقالوا : (حنطة) فاليهود هم أئمة المعتزلة والجهمية في تحريف النصوص ونفي معانيها الحقة .

وتضمنت الشطرة الثانية إثبات صفة الوجه لله تعالى ، ورؤية المؤمنين له في جنة الخلد ، **ودليل صفة الوجه لله تعالى** في أكثر من آية منها قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٦- ٢٧] ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الليل : ٢٠] ، والأصل عدم صرف اللفظ عن ظاهره ، فلله تعالى وجه يليق بكماله وجلاله ، وإثبات الوجه لله لا يقتضي مشابهة ولا مماثلة لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات كما

قدمنا ، فلله ذات ولنا ذوات ولكن ذات الله ليست كذواتنا ، فكذلك لله وجه ولنا وجوه ولكن وجه الله ليس كوجوهنا ، فكما إن إثبات الذات لا يقتضي المشابهة فكذلك إثبات الوجه لا يقتضي المشابهة .

ودليل رؤية الله عز وجل قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس : ٢٦] ، فالحسنى : هي الجنة ، والزيادة : هي رؤية الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] ، وقوله تعالى عن أعدائه : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] ، فإذا حجب أعداؤه عن رؤيته ، لم يحجب أولياؤه إذ لو كان الجميع محجوبًا لما كان في التخصيص فائدة ولاستوى المؤمن بالكافر في منعه رؤية الله عز وجل .

وللمعتزلة ها هنا شبهات منها أنهم يستدلون لنفي رؤية الله تعالى بقوله : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، وهذا من قلة الفهم فإن الإدراك

معناه الإحاطة وليس مجرد الرؤية بل هو أمر أكبر من الرؤية ، وإثبات الرؤية لا يتعارض مع نفي الإدراك بدليل قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦١، ٦٢] ، فأثبت الرؤية ونفى الإدراك ، فكذلك المؤمنون يرون ربهم ولكنهم لا يحيطون به علمًا ولا إدراكا .

وقد تواتر عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة لا يضامون في رؤيته كما يرون القمر ليلة البدر ، وهذا تشبيهٌ للرؤية بالرؤية وليس تشبيهًا للمرئي بالمرئي فلينتبه .

روى (البخاري : ٤٥٨١) عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوسًا ليلة مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق : ٣٩] .

٢٢- في ثُلْثِ اللَّيلِ الأخيرِ يَنْزِلُ تُعْطِي يَدَاهُ كَرَمًا مَنْ يَسْأَلُ

ومن صفات الله تبارك وتعالى أنه ينزل في ثلث الليل الأخير إلى السماء الدنيا كما روى (البخاري : ٦٣٢١) عن أبي هريرة

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فأغفر له » ، وهذا النزول على حقيقته نزولًا يليق بكماله وجلاله .

ومن صفاته عز وجل أن له يدين وكلتا يديه يمين مباركة بدليل قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة : ٦٤] ، وقال تعالى : ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ﴾ [ص : ٧٥] ، وكما في حديث آدم عندما خيره الله فقال : « اخترت ما في يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة » . (وروى البخاري : ٧٤٣٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه ، حتى تكون مثل الجبل » .

وعن سالم بن عبد الله أخبرني عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم

يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ » (مسلم: ٢٧٨٨) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ! إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول : أنا الملك . فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقًا لقول الحبر ، ثم قرأ : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر : ٦٧] . « متفق عليه » .

القبضة : هي ما يقبض باليد فالأرض وكل ما فيها قبضته يوم القيامة ، والسماوات على عظمها وسعتها مطويات بيمينه ، قال الله عز وجل : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ، وفي هذا الحديث الصحيح إثبات الأصابع لله عز وجل لإقراره ﷺ هذا الحبر على ما

قال ، والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله عز وجل كاليد ، وليس المراد بقوله : « على إصبع » سهولة التصرف في السماوات والأرض ، كما يقوله أهل التحريف ، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم ، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره ، ولقوله ﷺ : « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » .

ثم قال رسول الله ﷺ « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » (رواه مسلم: ٢٦٥٤) قال شيخ الإسلام : وأما قوله : « قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن » فإنه ليس في ظاهره أن القلب متصل بالأصابع ولا مماس لها ولا أنها في جوفه ولا في قول القائل هذا بين يدي ما يقتضي مباشرته ليديه وإذا قيل السحاب المسخر بين السماء والأرض لم يقتض أن يكون مماسًا للسماء والأرض ونظائر هذا كثيرة . (مجموع الفتاوى ج : ٣ ، ص : ٤٥) .

فلا يلزم من البينية المماسة ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة : ١٦٤] والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما ، وكما ثبت عنه ﷺ : أن الله تعالى يكون قبل وجه المصلي ، ولا يلزم من المقابلة أن يكون بينه وبين

السترة التي يصلي إليها ، فهو قبل وجهه وإن كان على عرشه ومثال ذلك الشمس حين تكون في الأفق عند الشروق أو الغروب فإنها تكون قبل وجهك وهي في العلو ، فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين على ضلال وأن من قال إن طريقتهم أعلم وأحكم فقد ضل .

وقد نفى المعتزلة صفة اليد وأولوها بمعنى القدرة وهذا من سوء فهمهم أيضًا ، فإذا كانت اليد بمعنى القدرة فما معنى اليدين ؟ أيكون لله قدرتان ؟ وإذا كانت اليد بمعنى القدرة فأي فضل لآدم على بنيه حين خلقه الله بيده ، إذا كان معناها خلقه الله بقدرته ، فكلنا مخلوقون بقدرة الله عز وجل قال البغوي : في تحقيق الله التثنية في اليد دليل على أنها ليست بمعنى القدرة والقوة والنعمة وإنما هما صفتان من صفات ذاته . (شرح السنة) .

٢٣- كَلامُهُ الْقُرْآنُ مِنْ صِفَاتِهِ   كَعِلْمِهِ وَسَمْعِهِ حَيَاتِهِ

ومن صفات الله عز وجل الكلام ، وكلامه لا نهاية له ، ولا نفاد ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف : ١٠٩] . ومن كلامه القرآن الكريم والدليل قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] . ولهذا أجمع الفقهاء على جواز الحلف بالقرآن لأنه كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته ، وقد جلد إمام السنة أحمد بن حنبل رحمه الله وعذب وسجن ليقول بأن القرآن مخلوق فأبى أن يقول بهذا القول المحدث وثبته الله عز وجل على القول الحق بأن القرآن غير مخلوق لأنه كلام الله ، وكلام اللّه صفة من صفاته ، وصفاته عز وجل غير مخلوقة ، وقال عمرو بن دينار المكي - وهو من ثقات التابعين وأئمتهم -: أدركت مشايخنا منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام اللّه ، منه بدأ وإليه يعود ؛ وقد أدرك عمرو بن دينار من الصحابة غير واحد ؛ منهم عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبو شريح الخزاعي والمسور بن مخرمة وسعد بن عائذ - المعروف بالقرظ - مؤذن رسول الله بقباء وأبو هريرة والسائب بن يزيد الكندي وأبو الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنهم وقد قالها الإمام أبو جعفر أحمد بن سنان الواسطي ، وهو شيخ البخاري ومسلم وأبي داود وابن ماجه والنسائي ، وقد وردت هذه اللفظة عن جماعة منهم عبد الله بن مسعود وسفيان

الثوري ووكيع بن الجراح وأبو نعيم الفضل بن دكين وعبد الله بن المبارك وروى المروذي أحمد بن محمد قال: قال أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله: لقيت الرجال والعلماء والفقهاء بمكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام والثغور وخراسان فرأيتهم على السنة والجماعة وسألت عنها الفقهاء فكل يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود.

وعن عكرمة قال: كان ابن عباس في جنازة فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال: اللهم رب القرآن أوسع عليه مداخله، اللهم رب القرآن اغفر له؛ فالتفت إليه ابن عباس فقال: مه، القرآن كلام الله وليس بمربوب، منه خرج وإليه يعود، وهذا مشهور عن ابن عباس. هكذا رواه الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله في كتاب «السنة»، وقد رواه الإمام أبو القاسم هبة الله ابن الحسن الطبري رحمه الله في كتاب «السنة». (اختصاص القرآن بعوده إلى الرحمن).

ومن صفات الله عز وجل: العلم ودليله قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، والسمع ودليله قوله تعالى:

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
وعن عبد الله رضي الله عنه قال: اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ الآية [فصلت: ٢٢]. (رواه البخاري: ٧٥٢١). والحياة لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فكما أن لله حياة لا تشبه حياة المخلوقين، فله كذلك سمع ولا بصر وعلم لا يشبه سمع ولا بصر ولا علم المخلوقين، وهكذا في سائر الصفات نثبتها بمعناها الذي دلت عليه دون تعطيل ولا تشبيه، ولذلك قلنا:

٢٤- وكُلُّ وَصْفٍ جَاءَ في الْقُرآنِ أو صَحَّ عَنْ نَبِيِّهِ الْعَدْنَانِ
٢٥- نُثْبِتُ مَعْنَاهُ بَغَيْرِ كَيْفِ وَغَيْرِ تَعْطِيلٍ وَغَيْرِ نَفْيِ

فكل ما وصف الله به نفسه في القرآن أو وصفه به نبيه ﷺ فيما صح من سنته فالواجب أن نثبته بمعناه بغير تكييف ولا تمثيل ولا

تعطيل ولا تحريف ، **فالتمثيل** : هو تمثيل صفاته عز وجل وتشبيهها بصفات خلقه وقد نزه الله عز وجل صفاته عن مماثلة خلقه فقال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] **والتكييف** : هو الكلام عن كيفية الصفة ، وهو بدعة وضلالة ، وسواء كان التكييف باللسان تعبيرًا ، أو بالجنان تقديرًا ، أو بالبيان تحريرًا ؛ ولهذا قال مالك رحمه الله حين سئل عن كيفية الاستواء : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة » وليس معنى هذا أن لا نعتقد أن لها كيفية ، بل لها كيفية ، ولكنها ليست معلومة لنا ، لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود ، فالاستواء والنزول واليد والوجه والعين لها كيفية ، لكننا لا نعلمها ، **والتعطيل** : معناه إثبات اللفظ بلا معنى فيثبتون ألفاظا لا معاني لها ، وهو نفيٌ للصفات حقيقة .

والتحريف هنا : هو التأويل الذي سلكه المحرفون لنصوص الصفات ؛ لأنهم سموا أنفسهم أهل التأويل ، لأجل تلطيف المسلك الذي سلكوه ؛ لأن النفوس تنفر من كلمة تحريف ، لكن هذا من باب زخرفة القول وتزيينه للناس ، حتى لا ينفروا منه ، وحقيقة تأويلهم : التحريف لأنه صرف للفظ عن ظاهره بغير دليل صحيح .

(٤) بَابُ الإسلامِ

٢٦- مِنْ خِمْسَةٍ قَدْ بُنِيَ الإسْلَامُ شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ والصِّيَامُ
٢٧- والْحَجُّ والزَّكَاةُ والصَّلَاةُ تَكَاسُلًا يَتْرُكُهَا الْعُصَاةُ

الإسلام معناه: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، وهو دعوة كل رسول ودين كل نبي، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤، ٨٥]. فمن لم يكن مسلمًا فهو كافر وإن تلبس بأي ملة، فالكفر ملة واحدة، والعجيب أن الكفار يدعون إلى باطلهم صباح مساء، والمسلمون لا يتحركون، بل بعض المسلمين الذين ما عرفوا الإسلام حقيقة يلينون لهؤلاء، ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وهذا من المحنة التي أصابت

المسلمين الآن ، وآلت بهم إلى هذا الذل الذي صاروا فيه .

وللإسلام خمسة أركان قائم عليها ومكون منها وهي :

١- **شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله** ، ومعناها : لا معبود بحق إلا الله ، ولا متبوع بحق إلا رسول الله ﷺ فلا نعبد إلا الله ، ولا نعبد الله إلا بما شرعه الله عز وجل في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ فهي تشمل توحيد العبادة لله ، وتوحيد الإتباع لرسول الله ﷺ وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف : ١١٠] . فالعمل الصالح هو الذي اتبع فيه رسول الله ﷺ ولا يقبل إلا إذا كان خالصًا لوجه الله عز وجل ، ولهذا أجمع الأئمة الأربعة وعلماء الإسلام على أن كلا يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ .

٢- **إقام الصلاة** ، ومعناه : أداؤها في أوقاتها مع جماعة المسلمين في المساجد وإتمام الطهارة لها والخشوع فيها ، فإن الفلاح مرتب عليها حيث قال الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون : ١، ٢] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ

وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

٣- **إيتـــاء الزكاة**، وهي حق الله في المال فرضها الله على الأغنياء للفقراء بنصاب معين وشروط معينة، فمن منعها أخذت منه عنوة فإن كان له شوكة قاتله الإمام على منعها حتى يؤديها كما فعل الصديق رضي الله عنه في أول خلافته وقال: والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. (البخاري: ١٤٥٦).

٤- **صوم رمضان**؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٥- **حج البيت على من استطاع إليه سبيلًا**؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد جمعت هذه الأركان الخمسة في الحديث المتفق عليه عن

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » [البخاري : ٨] .

والإسلام والإيمان بينهما عموم وخصوص فإذا أطلق أحدهما في نص دون الآخر فهما مترادفان وكل منهما يشمل الدين كله حينئذ ، وإذا اجتمعا في نص واحد كان لكل منهما معنى يخصه ، فالإسلام هو الظاهر والإيمان هو الباطن ، ولذلك قال أهل السنة : الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، والإسلام أشمل وأعم من الإيمان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا ، لأن اسم الإسلام يشمل المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر .

٢٨- وَكُفْرُهُ فِي الشَّرْعِ كُفْرٌ عَمَلِي   مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بِمُسْتَحِلِّ

يعني : أن من ترك شيئًا من الأعمال التي أوجبها الإسلام من غير جحود ولا استحلال بل كسلًا وعجزًا لاتباعه هواه فإنه مذنب فاسق ، وأما النصوص التي ورد فيها إطلاق لفظة الكفر عليه فهي بمعنى أنه وافق الكفار في تركهم العمل الذي فرضه الله ، فكفره كفر

عملي بسبب تركه العمل ولا يخرج به من ملة الإسلام إلا إذا استحل هذا الترك، وهذا باتفاق الأئمة وعلماء الأمة، وحتى في تارك الصلاة فالصحيح الذي عليه جماهير الأئمة وعلماء الأمة أن كفر تاركها كسلًا هو كفر عملي لا يخرج من الملة.

قال الشوكاني في «نيل الأوطار» (٣٦٩/١): ولا خلاف بين المسلمين في كفر من ترك الصلاة منكرًا لوجوبها، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو لم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة، وإن كان تركه لها تكاسلًا مع اعتقاده لوجوبها كما هو حال كثير من الناس فقد اختلف الناس في ذلك ... والجماهير من السلف والخلف- منهم مالك والشافعي- إلى أنه لا يكفر، بل يفسق، فإن تاب وإلا قتلناه حدًا، كالزاني المحصن ...» إلخ.

وقد روى الإمام معمر بن راشد في الجامع (١١/ ٤٠٩-٤١١) عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار وأمنوا، فوالذي نفسي بيده ما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشد من مجادلة المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار،

يقولون : ربنا ! إخواننا كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا ، ويحجون معنا ، ويجاهدون معنا ، فأدخلتهم النار ! .

فيقول : اذهبوا ، فأخرجوا من عرفتم منهم ، فيأتونهم ؛ فيعرفونهم بصورهم ، لا تأكل النار صورهم ، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه ، ومنهم من أخذته إلى كعبيه ، فيخرجون منها بشرًا كثيرًا ، فيقولون : ربنا ! قد أخرجنا من أمرتنا .

قال : ثم يعودون فيتكلمون فيقول : أخرجوا من كان في قلبه مثقال دينار من الإيمان ، فيخرجون خلقًا كثيرًا ثم يقولون : ربنا ! لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا ، ثم يقول : ارجعوا ، فمن كان في قلبه وزن نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون خلقًا كثيرًا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا حتى يقول : أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة فيخرجون خلقًا كثيرًا .

قال أبو سعيد : فمن لم يصدق بهذا الحديث فليقرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٤٠] .

فيقولون : ربنا قد أخرجنا من أمرتنا ، فلم يبق في النار أحد فيه

خير ! ثم يقول الله : شفعت الملائكة ، وشفع الأنبياء ، وشفع المؤمنون ، وبقي أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار – أو قال : قبضتين – ناسًا لم يعملوا خيرًا قط ، قد احترقوا حتى صاروا حممًا ، فيؤتى بهم إلى ماء يقال له الحياة ، فيصب عليهم ، فينبتون كما تنبت الحِبَّةُ في حميل السيل ، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، وإلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان منها إلى الظل كان أبيض ، فيخرجون من أجسادهم مثل اللؤلؤ ، وفي أعناقهم الخاتم عتقاء الله ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فما تمنيتم ورأيتم من شيء فهو لكم ومثله معه ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه .

فيقولون : ربنا ! أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين ! فيقول : فإن لكم عندي أفضل منه ! فيقولون : ربنا ! وما أفضل من ذلك ؟ فيقول : رضائي عنكم ، فلا أسخط عليكم أبدًا » .

وإسناده صحيح على شرط الشيخين ، ولقد توهم بعضهم أن المراد بالخير المنفي تجويز إخراج غير الموحدين من النار ! .

قال الحافظ : ورد ذلك بأن المراد بالخير المنفي ما زاد على أصل

الإقرار بالشهادتين كما تدل عليه بقية الأحاديث . (الفتح ١٣/ ٤٢٩) .

وعلى ذلك فالحديث دليل قاطع على أن تارك الصلاة إذا مات يشهد أن لا إله إلا الله أنه لا يخلد في النار مع المشركين ، ففيه دليل قوي جدًا أنه داخل تحت مشيئة الله تعالى في قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦] .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده حديثًا صريحًا في هذا من رواية عائشة رضي الله عنها ، مرفوعا بلفظ : « الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة .. » وفيه : « فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال ﷻ : ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة : ٧٢] ، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه ، أو صلاة تركها ، فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء ...»[1] الحديث .

(١) **ضعيف** : رواه أحمد (٦/ ٢٤٠) ، والحاكم (٤/ ٥٧٥) ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي بقوله : صدقة ضعفوه ، وابن بابنوس فيه جهالة ، وضعفه الألباني في « المشكاة » (٥١٣٣) .

وقد صححه الحاكم ويشهد له هذا الحديث الصحيح ، فهذا نص قاطع في المسألة ينبغي به أن يزول النزاع في هذه المسألة بين أهل العلم الذين تجمعهم العقيدة الواحدة التي منها عدم تكفير أهل الكبائر من الأمة المحمدية ؛ وبخاصة في هذا الزمان الذي توسع فيه بعض المنتمين إلى العلم في تكفير المسلمين لإهمالهم القيام بما يجب عليهم عمله ، مع سلامة عقيدتهم .

واعلم أن الكفر نوعان : كفر عمل ، وكفر جحود واعتقاد ، وأن كفر العمل ينقسم إلى ما يضاد الإيمان ، وإلى ما لا يضاده ؛ فالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان .

وأما الحكم بغير ما أنزل الله ، وترك الصلاة ، فهو من الكفر العملي قطعًا إلا إذا استحله فاعله ، وهذا الكفر العملي لا يخرجه من الدائرة الإسلامية ، والملة بالكلية ، كما لم يخرج الزاني والسارق من الملة ، وإن زال عنه اسم الإيمان ، وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالإسلام والكفر ، ولوازمهما .

ومن ورد في كلامه التصريح بردة تارك الصلاة إنما هو محمول

على المصر على الترك والامتناع عن الصلاة، مع تهديد الحاكم له بالقتل وبذلك تجتمع أدلتهم مع أدلة المخالفين، ويلتقون على كلمة سواء؛ أن مجرد الترك لا يكفر، لأنه كفر عملي.

قال ابن القيم رحمه الله: (ومن العجب أن يقع الشك في كفر من أصر على تركها، ودعي إلى فعلها على رؤوس الملأ، وهو يرى بارقة السيف على رأسه، ويشد للقتل، وعصبت عيناه، وقيل له: تصلي وإلا قتلناك؟! فيقول: اقتلوني، ولا أصلي أبدًا!).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (وإذا صبر حتى يقتل، فهل كافرا مرتدًا، أو فاسقا كفساق المسلمين؟ على قولين مشهورين، حكيا روايتين عن أحمد، فإن كان مقرًا بالصلاة في الباطن، معتقدًا لوجوبها، يمتنع أن يصر على تركها حتى يقتل ولا يصلي، هذا لا يعرف من بني آدم وعادتهم، ولهذا لم يقع قط في الإسلام، ولا يعرف أن أحدًا يعتقد وجوبها ويقال له: إن لم تصلِّ وإلا قتلناك، وهو يصر على تركها مع إقراره بالوجوب؛ فهذا لم يقع قط في الإسلام، ومتى امتنع الرجل من الصلاة حتى يقتل لم يكن في الباطن مقرًا بوجوبها؛ ولا ملتزمًا بفعلها، فهذا كافر باتفاق المسلمين، كما

استفاضت الآثار عن الصحابة بكفر هذا ، ودلت عليه النصوص الصحيحة ، كقوله ﷺ : « ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة » [رواه مسلم] . فمن كان مصرًا على تركها حتى يموت لا يسجد لله سجدة قط ، فهذا لا يكون قط مسلمًا مقرًا بوجوبها ، فإن اعتقاد الوجوب ، واعتقاد أن تاركها يستحق القتل ، هذا داعٍ تام إلى فعلها ، والداعي مع القدرة يوجب وجود المقدور .

فإذا كان قادرًا ولم يفعل قط علم أن الداعي في حقه لم يوجد ، والاعتقاد التام لعقاب التارك باعث على الفعل ، لكن هذا قد يعارضه أحيانًا أمور توجب تأخيرها ، وترك بعض واجباتها ، وتفويتها أحيانًا ، فأما من كان مصرًا على تركها ، لا يصلي قط ، ويموت على هذا الإصرار والترك فهذا لا يكون مسلمًا ، لكن أكثر الناس يصلون تارة ، ويتركونها تارة ، فهؤلاء ليسوا يحافظون عليها ، وهؤلاء تحت الوعيد ، وهم الذين جاء فيهم الحديث الذي في السنن من حديث عبادة عن النبي ﷺ أنه قال : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد في اليوم والليلة ، من حافظ عليهن كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عهد عند الله ، إن

شاء عذبه ، وإن شاء غفر له » فالمحافظ عليها : الذي يصليها في مواقيتها كما أمر الله تعالى ، والذي يؤخرها أحيانا عن وقتها ، أو يترك واجباتها ، فهذا تحت مشيئة الله تعالى ، وقد يكون لهذا نوافل يكمل بها فرائضه كما جاء في الحديث) . (الفتاوى : ٢٢/٤٨) .

وعلى هذا المحمل يدل كلام الإمام أحمد أيضًا الذي شهر عنه بعض أتباعه المتأخرين القول بتكفير تارك الصلاة دون تفصيل ، وكلامه يدل على خلاف ذلك ، بحيث لا يخالف هذا الحديث الصحيح ، كيف وقد أخرجه في مسنده ، كما أخرج حديث عائشة كما تقدم ؟ !

فقد ذكر ابنه عبد الله في مسائلة (ص ٥٥) قال : سألت أبي رحمه الله عن ترك الصلاة متعمدًا ؟ قال : (.. والذي يتركها لا يصليها ، والذي يصليها في غير وقتها ؛ أدعوه ثلاثًا ، فإن صلى وإلا ضربت عنقه هو عندي بمنزلة المرتد ..) .

فهذا نص من الإمام أحمد بأنه لم يكفر بمجرد تركه للصلاة ، وإنما بامتناعه عن الصلاة ، مع علمه بأنه يقتل إن لم يصل ، فالسبب هو إيثاره القتل على الصلاة ، فهو الذي دل على أن كفره كفر اعتقادي ، فاستحق القتل . قال الشيخ علاء الدين المرداوي رحمه

الله وهو كالشارح لكلام أحمد : (الداعي له هو الإمام أو نائبه ، فلو ترك صلوات كثيرة قبل الدعاء لم يجب قتله ، ولا يكفر على الصحيح من المذهب ، وعليه جماهير الأصحاب ، وقطع به كثير منهم) . « الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف » (٤٠٢/١) .

وقال عبد الله أيضًا في مسائله (ص ١٩٥/٥٦) : سألت أبي عن رجل فرط في صلوات شهرين ؟ فقال : يصلي ما كان في وقت يحضره ذكر تلك الصلوات ، فلا يزال يصلي حتى يكون آخر وقت الصلاة التي ذكر فيها هذه الصلوات التي فرط فيها ؛ فإنه يصلي هذه التي يخاف فوتها ، ولا يضيع مرتين ، ثم يعود فيصلي أيضًا حتى يخاف فوت الصلاة التي بعدها ، إلا إن كان كثر عليه ، ويكون ممن يطلب المعاش ، ولا يقوى أن يأتي بها ، فإنه يصلي حتى يحتاج إلى أن يطلب ما يقيمه من معاشه ، ثم يعود إلى الصلاة ، لا تجزئه صلاة وهو ذاكر الفرض المتقدم قبلها ، فهو يعيدها أيضًا إذا ذكرها وهو في صلاة .

فانظر هل ترى في كلام الإمام أحمد هذا إلا ما يدل على ما سبق تحقيقه أن المسلم لا يخرج من الإسلام بمجرد ترك تلك الصلاة ، بل صلوات شهرين متتابعين ! بل وأذن له أن يؤجل قضاء بعضها

لطلب المعاش !

بل قد قال الإمام أحمد في وصيته لتلميذه الإمام مسدد بن مسرهد : « ... ولا يخرج الرجل من الإسلام شيء إلا الشرك بالله العظيم ، أو يرد فريضة من فرائض الله عز وجل جاحدًا بها ، فإن تركها كسلًا أو تهاونًا : كان في مشيئة الله ؛ إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه ...» .

وقال ابن قدامة المقدسي : « ولأن ذلك إجماع المسلمين ، فإننا لا نعلم في عصر من الأعصار أحدًا من تاركي الصلاة ترك تغسيله والصلاة عليه ، ولا منع ميراث مورثه ، ولا فرق بين الزوجين لترك الصلاة من أحدهما مع كثرة تاركي الصلاة ، ولو كفر لثبتت هذه الأحكام ، ولا نعلم خلافًا بين المسلمين أن تارك الصلاة يجب عليه قضاؤها ، مع اختلافهم في المرتد ، وأما الأحاديث المتقدمة فهي على وجه التغليظ والتشبيه بالكفار ، لا على الحقيقة ، كقوله ﷺ : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » . وأشباه هذا مما أريد به التشديد في الوعيد .

قال شيخنا رحمه الله (يعني الموفق المقدسي) : « وهذا أصوب القولين ، والله أعلم » . [« الشرح الكبير على المقنع » (١/ ٣٨٥)] .

(٥) بَابُ الإيمَانِ

٢٩- وَقَوْلُ أَهْلِ الْحَقِّ في الإيمانِ قَـوْلٌ وَأَعْـمَـالٌ عَـلَـى أرْكَـانِ

٣٠- باللَّهِ والملائِكِ الأبرارِ وَالكُتْبِ والرُّسْلِ وَبالأقدارِ

٣١- وَالسَّادِسُ الإيمانُ بالْقِيَامةِ فَاعْلَمْ فإن الْعِلْمَ دَرْبُ الْجَنَّةِ

الإيمان لغة معناه : التصديق بدليل قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَتَأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف : ١٧] . وأما الإيمان شرعًا ؛ فاختلف فيه بين أهل البدع وأهل السنة والجماعة ، فالقول الحق - وهو قول أهل السنة والجماعة - أن الإيمان : قول وعمل ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

وله ستة أركان وهي :

١- **الإيمان بالله عز وجل** ، بأنه الإله الحق المستحق وحده للعبادة ، وتوحيده في ربوبيته ، وألوهيته ، وأسمائه وصفاته .

٢- **الإيمان بالملائكة** ، ويشمل الإيمان بوجودهم ، وأنهم خلق من خلق الله ، مخلوقون من نور لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما

يؤمرون ، ولهم أعمال وكلهم الله عز وجل بها ، فمنهم الموكلون بكتابة أعمال بني آدم وهما ملكان ذكرهم الله عز جل بقوله : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨] ، ومنهم الموكلون بالأرحام ، ومنهم الموكلون بالأرواح ، ومنهم الموكلون بالجبال ، وقد سمى الله عز وجل منهم في القرآن جبريل عليه السلام وهو أمين الوحي الذي ينزل على رسله من البشر قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء : ١٩٢- ١٩٥] ، والروح الأمين هو جبريل عليه السلام ، ومنهم الموكل بالقطر وهو ميكائيل عليه السلام ، قال الله تعالى ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٩٨] ، ومنهم صاحب الصور الذي ينفخ فيه للبعث والنشور وهو إسرافيل عليه السلام ، وهكذا فنؤمن بالملائكة جملة وتفصيلاً .

٣- الإيمان بالكتب التي أنزلها الله عز وجل على رسله ، ومنها الزبور الذي أنزله الله عز وجل على داود عليه السلام قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء : ١٦٣] ومنها الصحف التي

أنزلها الله عز وجل على إبراهيم وموسى عليهما السلام ، قال تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى : ١٨، ١٩] .

ومنها التوراة التي أنزلها الله عز وجل على موسى عليه السلام والإنجيل الذي أنزل الله عز وجل على عيسى عليه السلام قال الله تعالى : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة : ٤٦] ، ومنها القرآن الكريم الذي أنزله الله على خاتم النبيين ﷺ وهو أفضل الكتب وأعظمها نزل على خير الرسل لخير الأمم وهو مهيمن على ما سبق وحاكم على ما حرف منها بالبطلان إذ أن التوراة والإنجيل كما هو معلوم قد حرفا عن مواضعهما كما قال تعالى : ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦] ، فأنزل الله القرآن مهيمنا على الكتب جميعا قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة : ٤٨] .

ومن الإيمان بالقرآن الكريم : تعظيمه وإجلاله والعمل بأحكامه

وتحكيمه في كل شئون الحياة ، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة واعتقاد أنه كلام الله كما قدمنا ، وتعلمه وتلاوته حق التلاوة .

٤-**الإيمان بالرسل جملةً وتفصيلًا** ، فنؤمن أن الله عز وجل بعث في كل أمة رسولًا يدعوهم إلى توحيده كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] . وأن الله عز وجل اصطفاهم من الناس ، وعصمهم من الكبائر كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج : ٧٥] ، ونؤمن أنهم بلغوا البلاغ المبين ، وأن الله فضل بعضهم على بعض كما قال تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ونؤمن بمن سمى الله عز وجل منهم في القرآن كآدم ونوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط ويوسف وأيوب وداود وسليمان وصالح وهود وشعيب وإلياس واليسع وموسى وعيسى ومحمد - صلى اللّٰه عليهم وسلم -، ونؤمن أن أفضلهم هم أولوا العزم من الرسل ، وهم خمسة أشار إليهم رب العزة بقوله : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٣٥]

وذكرهم بقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب : ٧] . فأولو العزم من الرسل هم : محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وأفضلهم خاتم النبيين محمد ﷺ لقوله تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ولقوله ﷺ : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» .

٥- الإيمان بالقدر خيره وشره :

القدر : هو تقدير الله عز وجل للكائنات ، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله .

والقدر يطلق على معنيين .

الأول : التقدير ، أي : إرادة الله عز وجل الشيء .

الثاني : المقدر ، أي : ما قدره الله عز وجل .

قال الله عز وجل : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩].

وعن عبادة بن الصامت ، أنه قال لابنه : يا بني ! إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما

خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . فقال : رب ! وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » يا بني ! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات على غير هذا ، فليس مني » .

وفي رواية لأحمد : « إن أول ما خلق الله تعالى القلم ، فقال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » .

والقلم هو أول ما خلق الله بالنسبة لما نشاهده فقط من المخلوقات ، كالسماوات والأرض . فهي أولية نسبية ، لأنه ثبت في « صحيح البخاري » : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر مقادير كل شيء » . وهذا واضح في الترتيب ، ولهذا فالصواب أن خلق القلم بعد خلق العرش .

والناس في القدر ثلاث طوائف :

الأولى : **الجبرية الجهمية** ، أثبتوا قدر الله تعالى وغلوا في إثباته حتى سلبوا العبد اختياره وقدرته ، وقالوا : ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه ، فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة .

والقول بالجبر باطل بالكتاب والسنة والعقل والحس وإجماع السلف ، ولا يقول به من قدر الله حق قدره وعرف مقتضى حكمته ورحمته .

فمن أدلة الكتاب : قوله تعالى : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران : ١٥٢] ، وقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٦٧] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل : ٨٨] ، وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون : ١١] ، فأثبت للعبد إرادةً وقولًا وفعلًا وعملًا .

ومن أدلة السنة : قول النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » ، وقوله : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به ، فائتوا منه ما استطعتم » .

ولهذا إذا أكره المرء على قول أو فعل وقلبه مطمئن بخلاف ما أكره عليه ، لم يكن لقوله أو فعله الذي أكره عليه حكم فاعله اختيارًا .

وأما إجماع السلف على بطلان القول بالجبر : فلم ينقل عن

أحد منهم أنه قال به ، بل رد من أدرك منهم بدعته معلوم مشهور .

وأما دلالة العقل على بطلانه : فلأنه لو كان العبد مجبرًا على عمله ، لكانت عقوبة العاصي ظلمًا ومثوبة الطائع عبثًا ، والله تعالى منزه عن هذا ، ولأنه لو كان العبد مجبرًا على عمله لم تقم الحجة بإرسال الرسل ، لأن القدر باق مع إرسال الرسل ، وما كان الله ليقيم على العباد حجة مع انتفاء كونها حجة .

وأما دلالة الحس على بطلانه : فإن الإنسان يدرك الفرق بين ما فعله باختياره ، كأكله وشربه وقيامه وقعوده ، وبين ما فعله بغير اختياره ، كارتعاشه من البرد والخوف ونحو ذلك .

الطائفة الثانية : القدرية المعتزلة ، أثبتوا للعبد اختيارًا وقدرة في عمله وغلوا في ذلك حتى نفوا أن يكون لله تعالى في عمل العبد مشيئة أو خلق ، ونفى غلاتهم علم الله به قبل وقوعه ، فأكل العبد وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالى في ذلك مشيئة ولا خلق ، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم .

وهذا باطل ؛ لأن إثبات استقلال العبد بعمله مع كونه مملوكًا لله

تعالى يقتضي إثبات شيء في ملك الله لا يريده الله ، وهذا نوع إشراك به ، ولهذا سمى النبي ﷺ : « **القدرية مجوس هذه الأمة** » .

وقال ابن عمر : « والذي نفس ابن عمر بيده ، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ، ثم أنفقه في سبيل الله ، ما قبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر ثم استدل بقول النبي ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

الطائفة الثالثة : أهل السنة والجماعة :

الطائفة الوسط ، الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا في طريقهم خير ملة ، فآمنوا بقضاء الله وقدره ، وبأن للعبد اختيارًا وقدرة ، فكل ما كان في الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم ، فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيئته ، وكل ما كان في الكون فمخلوق لله تعالى ، لا خالق إلا الله ولا مدبر للخلق إلا الله عز وجل ، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة ، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الانفطار: ٢٨- ٢٩] ، فإذا شاء العبد شيئًا وفعله ، علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة .

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين الدليل المنقول والمعقول ، فأدلتهم على إثبات القدر هي أدلة المثبتين له من الجبرية ، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة القدر .

وأدلتهم على إثبات مشيئة العبد وقدرته هي أدلة المثبتين لذلك من القدرية ، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة مشيئة العبد وقدرته .

وبهذا نعرف أن كلًّا من الجبرية والقدرية : نظروا إلى النصوص بعين الأعور الذي لا يبصر إلا من جانب واحد ، فهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وعلى هذه الأركان الستة أدلة من الكتاب والسنة فمن القرآن قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

ومن السنة قول رسول الله ﷺ : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

٣٢- بِضْعٌ وَسَبْعونَ مِنَ الخِصالِ أَعْظَمُهَا شَهَادَةُ الْجَلالِ

هذا الإيمان القائم على الأركان الستة المتقدمة يشمل بضعًا وسبعين شعبة ، والبضع من الثلاث إلى التسع ودل عليه قوله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » وقد اعتنى العلماء بِعَدِّ هذه الشعب ومنهم الإمام البيهقي رحمه الله في كتابه المسمى « شعب الإيمان » ، وقد حدد رسول الله ﷺ أعظم هذه الشعب ألا وهي شهادة التوحيد ، وأدنى هذه الشعب وهو إماطة الأذى عن الطريق وبينهما شعب كثيرة منها ما يقرب من أعلى شعبة ومنها ما يقرب من أدنى شعبة ، فمن شعب الإيمان العظيمة : إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج وهي أركان الإسلام الخمسة ، ولذلك فالإيمان أعلى منزلة من الإسلام وأخص منه ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا بدليل قوله تعالى : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات : ١٤] ، وأعلى مراتب الدين هي مرتبة الإحسان وهي المذكورة في حديث جبريل بعد الإسلام والإيمان ومعناها كما قال الرسول ﷺ : « أن

تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

٣٣- يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ فِي القُلُوبِ كَـذلِكُـمُ يَـنْـقُـصُ بِـالـذُّنُـوبِ

الإيمان كما قدمنا مكون من أركان وشعب فكلما قويت أركانه وكثرت شعبه كلما زاد في القلب وظهر على الجوارح، وكلما ضعفت أركانه وقلت شعبه كلما نقص في القلب وغاب عن الجوارح، فاعتقاد أهل الحق في الإيمان أنه يزيد بالطاعة حتى يصبح كالجبال، وينقص بالمعصية حتى لا يبقى منه إلا مثقال ذرة ولذلك تفاضل أهله فيه فإيمان النبي ﷺ لا يعدله إيمان أحد من أمته .

قال البخاري رحمه الله : ١- باب الإيمان وقول النبي ﷺ : « بني الإسلام على خمس » وهو قول وفعل، ويزيد وينقص قال الله تعالى : ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح : ٤]، ﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف : ١٣]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم : ٧٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد : ١٧]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا﴾ [المدثر : ٣١]، وقوله : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة : ١٢٤]، وقوله جل ذكره : ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [آل عمران : ١٧٣]،

وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص.

والأدلة على زيادة الإيمان لا تحصى من كتاب الله عز وجل، وهي تدل على نقص الإيمان بطريق اللزوم، كما أن السنة جاءت به صريحة في قوله ﷺ: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن» متفق عليه.

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية، فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية، ولهذا قال الله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٣٤- وَيُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنَ النيرانِ   مِثْقَالُ ذَرةٍ مِنَ الإيمان

ومن فضائل الإيمان أنه وإن قل إلى مثال ذرة فإنه ينفع صاحبه ويمنعه من الخلود في النار ؛ لأن الله عز وجل حكم عدل قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠] . ولقول الرسول ﷺ : « يقول الله عز وجل : أخرجوا من النار من كان في قلبه مثال ذرة من إيمان » . فلا يخلد في نار جهنم إلا من خلا قلبه من الإيمان بالله عز وجل .

وفي حديث الشفاعة المتفق عليه : « ... ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدًا فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع . فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله . قال : ليس ذاك لك- أو قال ليس ذاك إليك- ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من قال لا إله إلا الله » . (مسلم: ١٩٣) .

وقال ابن حجر رحمه الله في قصة أبي طالب : وفي الحديث أن من لم يعمل خيرًا قط إذا ختم عمره بشهادة أن لا إله إلا اللّٰه حكم بإسلامه وأجريت عليه أحكام المسلمين ، فإن قارن نطق لسانه عقد قلبه نفعه ذلك عند الله تعالى ، بشرط أن لا يكون وصل إلى حد

انقطاع الأمل من الحياة وعجز عن فهم الخطاب ورد الجواب وهو وقت المعاينة . وليس معنى هذا أن نترك العمل بل لا بد من العمل بطاعة الله عز وجل والوقوف عند حدوده ومحارمه لأن عذاب الله شديد فلا يستهين العبد بعذاب الله عز وجل ، وربما أدى التهاون بالطاعات وارتكاب المحرمات إلى سلب الإيمان والعياذ بالله ولا سيما عند الممات ، نسأل الله الثبات .

* * *

(٦) بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

٣٥- وَالشِّرْكُ يَا بُنَيَّ لَيْسَ يُغْفَرُ   أَقْبَحُ ذَنْبٍ في الوَرَى وَأَكْبَرُ

ينبغي لكل مسلم عاقل أن يخاف على نفسه من الشرك لأنه أقبح الذنوب وأكبرها ولا يغفر الله عز وجل لعبد مات مشركًا قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقد حرم الله الجنة على المشركين وأوجب لهم جهنم خالدين فيها أبدًا كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] حتى ولو كان والد النبي ﷺ فعن أنس أن رجلًا قال يا رسول الله أين أبي قال : «في النار». فلما قفى دعاه فقال : «إن أبي وأباك في النار». (مسلم: ٥٢١). وقد أخرج الحاكم وابن أبي حاتم من طريق أيوب بن هانئ عن مسروق عن ابن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ يومًا إلى المقابر فاتبعناه ، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلًا ثم بكى ، فبكينا لبكائه ، فقال : «إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي ،

واستأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي ، فأنزل عليَّ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص : ٥٦] » .

والشرك أكبر الكبائر لقول النبي ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئًا فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « قلت يا رسول الله أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل للّٰه ندًا وهو خلقك ؟ قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك : قلت ثم أي ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : وتصديقه في كتاب الله ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان : ٦٨] » . والأدلة على قبح الشرك وخلود أهله في النار كثيرة جدًا .

٣٦- أَوَّلُ مَا عَنْهُ الإِلهُ قَدْ نَهَى أَخْوَفُ مَا يَخَافُهُ أُولو النُّهَى

ومن الأدلة التي توجب للمؤمن الخوف من الشرك أنه أول

الأمور المحرمة التي نهى الله عز وجل عنها كما قال تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام : ١٥١] .

و« أن » في ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ تفسيرية ، تفسر ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾ أي : أتلوا عليكم ألا تشركوا به شيئًا ، وعليه فالصحيح الوقف على ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لتعلقه بالفعل ﴿أَتْلُ﴾ أي : أتل عليكم عدم الإشراك ؛ لأن الله حرم علينا أن نشرك به .

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما عن هذه الآيات : من أراد أن ينظر وصية محمد ﷺ : التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات .

ومن الأدلة التي توجب الخوف من الشرك أن من هم أفضل منا دينًا وعقلًا كانوا يخافونه أشد الخوف ويضرعون إلى الله عز وجل أن يجنبهم الشرك كما حكى الله عز وجل عن إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم : ٣٥] . فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه ، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء ؛ وهذا هو نبينا محمد ﷺ : وهو خاتم النبيين وأفضل

المرسلين يستعيذ بالله من الشرك فيقول : « اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه » . فكيف بنا نحن ؟ إذا كان الخليلان عليهما السلام يخافان الشرك وقد عصمهما الله منه بالاصطفاء للرسالة فكيف بنا نحن؟ والرسول ﷺ يقول : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرض من الدنيا » . (مسلم : ٣٢٨) .

٣٧- وَمُوجِبٌ لِلْخُلْدِ في جَهَنَّما وَمُحْبِطُ الأعمال عَنْ بَابِ السَّمَا

ومن الأمور الداعية إلى الخوف من الشرك أنه يوجب الخلود في نار جهنم كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب : ٦٤- ٦٨] .

وكما سئل النبي ﷺ : ما الموجبتان ؟ فكان الجواب : « من

مات لا يشرك بالله شيئًا وجبت له الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئًا وجبت له النار » ، أو كما قال ﷺ .

وأنه محبط للأعمال عن باب القبول في السماء كما قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] ، فهذا للنبي ﷺ : فكيف بنا ، وكيف لا نخاف من هذا الذنب العظيم الذي يحبط الأعمال ويوجب الخلد في السعير والأغلال ، نسأل الله السلامة من الشرك والثبات على التوحيد والموت على ملة الإسلام .

قال الإمام النووي رحمه الله : فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصي ما عمل ، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل ، هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة . (شرح صحيح مسلم ٢١٧/١) .

* * *

(٧) بَابُ تَعْرِيفِ الشِّرْكِ

٣٨- والشِّرْكُ أَنْ تَدْعُوَ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَ مَن جَلَّ عَنِ الأشبَاهِ

٣٩- أَوْ صَرْفُ أيِ شيء مِنْ عِبَادَةْ لِغَيْرِهِ لو كَانَ بِالإِرَادَةْ

تعريف الشرك : هو صرف أي شيء من أنواع العبادة لغير الله تعالى كالدعاء والنذر ونحوها . قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر : ٦٠] ، ﴿عِبَادَتِي﴾ ؛ أي دعائي ؛ فسمى الله الدعاء عبادة ، وقال ﷺ : «إن الدعاء هو العبادة» .

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف : ٥] أي : لا أحد أضل من هذا ، لو بقي كل عمر الدنيا يدعو ما استجاب له ، قال الله تعالى : ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر : ١٤] ، الشاهد : قوله : ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ، فإذا كان من سوى الله لا يستجيب إلى يوم القيامة ؛ فكيف يليق بك أن تستغيث به دون الله ؟ !

فالذي يأتي للبدوي أو للدسوقي ، فيقول : المدد ! المدد ! أو : أغثني ؛ لا يغني عنه شيئًا ، أو يأتي للجيلاني في العراق ، أو ابن عربي في سوريا ، فيستغيث به ؛ فإنه لا ينتفع ، ولو بقي الواحد منهم يدعو إلى يوم القيامة ما أجابه ، ولكن قد يبتلى فيأتيه المدد عند حصول هذا الشيء لا بهذا الشيء ، وفرق بين ما يأتي بالشيء وما يأتي عند الشيء ، كما مات الرجل الذي وكزه موسى عندما وكزه ، فمات عندها وليس بها .

ومن الشرك أيضًا أن يستغيث بغير اللَّه بما لا يقدر عليه المستغاث به ، إما لكونه ميتًا ، أو غائبًا ، أو يكون الشيء مما لا يقدر على إزالته إلا الله تعالى ، فلو استغاث بميت ليدفع عنه أو بغائب أو بحي حاضر لينزل المطر ، فهذا كله من الشرك ، ولو استغاث بحي حاضر فيما يقدر عليه كان جائزًا ، قال اللَّـه تعالى : ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص : ١٥] ، وإذا طلبت من أحد الغوث وهو قادر عليه ؛ فإنه يجب عليك تصحيحًا لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرد سبب ، وأنه لا تأثير له في إزالة الشدة .

وحقيقة الشرك أنه تسوية لغير الله بالله عز وجل وهذا يتنزه الله

عز وجل عنه ؛ فليس له شبيه ولا نظير ولا ند ولا مثل ، فالله عز وجل هو الخالق وغيره مخلوق ، وهو الرب وغيره مربوب ، وهو الغني وغيره الفقير ، وهو القوي وغيره الضعيف وهو القدير وغيره العاجز فكيف يسوى به غيره تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا .

ومعنى (لو كان بالإرادة) أي قد يقع الإنسان في الشرك إذا صرف إرادته ونيته لغير الله ، كمن يذبح ذبيحة وينوي بها التقرب لغير الله من نبي أو ولي أو ملك أو جن ، فهذا شرك بمجرد النية والإرادة ، ومن ذلك الشرك في المحبة كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] الآية .

أي : يحبون هذه الأنداد كمحبتهم لله ، فيجعلونها شركاء لله في المحبة ، لكن الذين آمنوا أشد حبًا لله من هؤلاء لله ، وكانت محبة المؤمنين لله أشد ، لأنها محبة خالصة ليس فيها شرك ، وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم ، فإنهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله ، ولهذا لو قيل له : احلف بالله حلف صادقًا أو كاذبًا ، أما الولي فلا يحلف به إلا صادقًا .

وتجد كثيرًا منهم يأتون إلى مكة والمدينة ويرون أن زيارة قبر

الرسول ﷺ أعظم من زيارة البيت ؛ لأنهم يجدون في نفوسهم حبًا لرسول الله ﷺ كحب الله أو أعظم ، وهذا شرك .

٤٠- أَوْ لُبْسُ حَلْقَةٍ وَخَيْطٍ لِلشِّفَا أَوْ وَدْعَةٍ دَعَا عَلَيْهِ الْمُصْطَفَى

ومن الشرك أن يعتقد الإنسان النفع والضر في غير الله كأن يلبس حلقة معينة من معدن ، أو خيط معين معتقدًا أنها تشفي بذاتها أو تنفع وتضر بنفسها ، وليس هذا كالتداوي المشروع الذي يكون فيه الدواء مجرد سبب لا يؤثر في المرض إلا بإذن الله ، فالشرك هو اعتقاد النفع والضر في غير الله ، أما الأخذ بالسبب مع اعتقاد أنه مجرد سبب لا ينفع ولا يضر فهو أمر مشروع .

قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر : ٣٨] . فالله سبحانه إذا أراد ضرًا لا يستطيع أحد أن يكشفه ، وإن أراد رحمة لا يستطيع أحد أن يمسك الرحمة .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلًا في يده حلقة من صفر ، فقال : « ما هذه » ؟ قال : من الواهنة . فقال : « انزعها ؛ فإنها لا تزيدك إلا وهنا ، فإنك لو مت وهي عليك ؛

ما أفلحت أبدًا » . رواه أحمد بسند لا بأس به ، و(الواهنة) وجع في الذراع أو العضد .

ومن الشرك كذلك تعليق الودع الذي يستخرج من البحر معتقدًا أنه يدفع الحسد والعين ، أو تعليق ما شابهها كحجر ذي لون معين أو ناب سبع أو عين ذئب ، وقد دعا النبي ﷺ على من فعل ذلك فعن عقبة بن عامر مرفوعًا : « من تعلق تميمة ؛ فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة ؛ فلا ودع الله له » أي : من علق بها قلبه واعتمد عليها في جلب النفع ودفع الضرر ، والتميمة : شيء يعلق على الأولاد من خرز أو غيره يتقون به العين .

وقوله : (فلا أتم الله له) الجملة خبرية بمعنى الدعاء والودعة : واحدة الودع ، وهي أحجار تؤخذ من البحر يعلقونها لدفع العين ، ويزعمون أن الإنسان إذا علق هذه الودعة لم تصبه العين ولا الجن .

قوله : (فلا ودع الله له) أي : لا تركه الله في دعة وسكون ، وضد الدعة والسكون القلق والألم .

٤١- وَمَنْ بِقَبْرِ صَالِحٍ تَبَرَّكَا أَوْ طَافَ حَوْلَهُ يَكُونُ مُشْرِكَا

ومن الشرك التبرك بقبور الصالحين والأنبياء وتخصيصها بتحري

العبادة عندها، فكيف بعبادتها من دون الله عز وجل بتعظيمها بالذبح لها والطواف حولها وبناء المساجد عليها، وكل ذلك شرك أكبر كما قدمنا، وسببه الغلو في الصالحين والأنبياء وتعظيمهم التعظيم الذي لا يليق إلا بالله عز وجل، وأما الطواف حول قبور الصالحين فإنه من البدع الشركية لأن الله عز وجل لم يشرع الطواف إلا ببيته المشرف بقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]. والأنبياء والصالحون لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فكيف يملكون لغيرهم ذلك.

والتبرك: تَفَعُّل من البركة، والبركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من البِركة بالكسر، والبركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين: الكثرة والثبوت.

والتبرك: طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

١- أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم مثل القرآن قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، فأنقذ الله بذلك أممًا كثيرة من الشرك، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وأنه ميسر للذكر، وأن الله عز وجل حفظه، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

٢- أن يكون بأمرٍ حسي معلوم ؛ مثل : التعليم ، والدعاء ، ونحوه ؛ فهذا الرجل يتبرك بعلمه ودعوته إلى الخير ؛ فيكون هذا بركةً ؛ لأننا نلنا منه خيرًا كثيرًا ، وقال أسيد بن حضير : (ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر) ؛ فإن الله يجري على بعض الناس من أمور الخير ما لا يجريه على يد الآخر .

وهناك بركات موهومة باطلة ؛ مثل ما يزعمه الدجالون : أن فلانًا الميت الذي يزعمون أنه ولي أنزل عليهم من بركته وما أشبه ذلك فهذه بركة باطلة لا أثر لها ، وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر فيكون في ذلك فتنة ، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما رأى الناس ينتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها ، وحتى الصخرة التي في بيت المقدس لا يتبرك بها ، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به ، وإنما يتعبد لله بمسحه وتقبيله ؛ اتباعًا للرسول ﷺ ، وبذلك تحصل بركة الثواب ، ولهذا قال عمر رضي الله عنه : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ؛ ما قبلتك » ، فتقبيله عبادة محضة خلافًا للعامة ، حيث يظنون أن به بركة حسية .

٤٢- أَوْ كَانَ هَازِئًا بِحُكْمِ اللَّهِ   أَوْ سَاخِرًا مِنْ عَابِدٍ أَوَّاهِ

ومن مظاهر الشرك الاستهزاء بحكم الله وشرعه كمن يستهزئون بحدود الله من قطع يد السارق أو رجم الزاني المحصن، فيقولون: إن هذا قسوة وهمجية، أو إنه لا يصلح لزماننا، أو نحو ذلك من السخرية الصريحة والاستهزاء البين الدال على رفض لحكم الله وازدراءً له، فمن استهزأ بالصلاة ولو نافلة، أو بالزكاة، أو الصوم، أو الحج، فهو كافر بإجماع المسلمين، كذلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال مثلًا: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه، فهذا كفر مخرج عن الملة، لأن كل أفعاله عز وجل مبنية على الحكمة.

وكذلك السخرية بمن استقام على دين الله أو التزم أوامره والاستهزاء به لتدينه، وليس لشخصه وذاته فالاستهزاء بذاته وشخصه ككونه قصيرًا جدًا أو ممتلئًا جدًا يدخل في باب المعاصي والذنوب، أما الاستهزاء به بسبب تدينه والتزامه؛ كالاستهزاء بكونه مصليًا محافظًا على الصلوات في المسجد كمن يقول للمصلي: خلي صلاتك تنفعك، أو يقول لمن التحى: ما هذه القذارة التي في

وجهك ، أو يستهزئ بحجاب المسلمة فيسميه خيمة أو تأخر ورجعية أو ردة عن الحضارة والتقدم ونحو ذلك ، فهو من الاستهزاء بالدين حقيقة وليس بالأشخاص وهو كفر بالله عز وجل قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة : ٦٥، ٦٦] وهؤلاء الذين حضروا السب وهم يستطيعون المفارقة مثل الذين سبوا ، قال تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء : ١٤٠] .

وعن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة ، دخل حديث بعضهم في بعض : «أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ، أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عن اللقاء يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء . فقال له عوف بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب

عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق».

قال ابن عمر: «كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب؛ فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ما يلتفت إليه وما يزيده عليه». [رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٦٩١٢-١٦٩١٦)، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٤/٢٣٠)].

ولكن لا يطلق الكفر على شخص معين فعل هذا، إذ أن تكفير المعين له شروط لا بد من تحققها، وموانع لا بد من انتفائها، ثم بعد ذلك لا بد من إقامة الحجة، فالأمر ليس بهذه السهولة التي قد يظنها من لم يتمكن من أصول العلم، ونحن هدفنا تحذير الناس من الشرك حتى لا يقعوا فيه ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ونصيحتهم

بالتي هي أحسن ليعلموا دينهم ويعملوا به فيفوزوا في الدنيا والآخرة .

٤٣- أَوْ ذَابِحًا وَمُوَفِيًا بِنَذْرِ أَوْ مُسْتَعِيذًا غَيْرَهُ مِنْ ضُرِّ

ومن الشرك أيضًا الذبح لغير اللّه ، قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام : ١٦٢- ١٦٣] ، فإن الصلاة أعلى العبادات البدنية ، والذبح أعلى العبادات المالية ؛ لأنه على سبيل التعظيم لا يقع إلا قربة ، هكذا قرر شيخ الإسلام في هذه المسألة ، وفي قوله تعالى : ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إثبات توحيد العبادة ، وفي قوله : ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ إثبات توحيد الربوبية .

وقال الله تعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر : ٢] . والمراد بالصلاة هنا الصلاة المعروفة شرعًا ، والمراد بالنحر : الذبح ، أي اجعل نحرك لله كما أن صلاتك له ؛ فأفادت هذه الآية الكريمة أن النحر من العبادة ولهذا أمر الله به وقرنه بالصلاة ، ويدخل فيه كل ما ثبت في الشرع مشروعيته .

وأما النذر لغير الله فإنه من الشرك بالله تعالى مثل أن يقول : للنبي عليَّ نذر ، أو للحسين عليَّ نذر ، أو لجبريل عليَّ نذر ، وما أشبه

ذلك ؛ لأنه عبادة للمنذور له ، وإذا كان عبادة ؛ فقد صرفها لغير الله فيكون مشركًا ، وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقًا ، ولا تجب فيه كفارة ، بل هو شرك تجب التوبة منه ، قال الله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان : ٧] . ووجه الاستدلال بالآية على أن النذر لغير الله من الشرك : أن الله تعالى أثنى عليهم بذلك ، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة ، ولا يكون سببًا يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة ؛ فيقتضي أن صرفه لغير الله شرك .

ومن الشرك الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ؛ ومن ذلك الاستعاذة بأصحاب القبور ؛ فإنهم لا ينفعون ولا يضرون ؛ فالاستعاذة بهم شرك أكبر ، سواء كان عند قبورهم أم بعيدًا عنهم ، أما الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه ؛ فهي جائزة وهو مقتضى الأحاديث الواردة في (صحيح مسلم) لما ذكر النبي ﷺ الفتن ؛ قال : « فمن وجد من ذلك ملجأً ؛ فليعذ به » وكذلك قصة المرأة التي عاذت بأم سلمة ، والغلام الذي عاذ بالنبي ﷺ ، وكذلك قصة الذين يستعيذون بالحرم والكعبة ، وما أشبه ذلك ، وهذا هو مقتضى النظر ، فإذا اعترضني قطاع طريق ، فعذت بإنسان يستطيع أن

يخلصني منهم ؛ فلا شيء فيه ، لكن تعليق القلب بالمخلوق لا شك أنه من الشرك ، فإذا علقت قلبك ورجاءك وخوفك وجميع أمورك بشخص معين ، وجعلته ملجأً ؛ فهذا شرك ؛ لأن هذا لا يكون إلا لله .

٤٤- أَوْ كَانَ رَاقِيًا بِمَا لا يُفْهَمُ كَـذَاكَ يَـا أولاديَ الـتَّـمَـائِـمُ

الرقية تنقسم إلى نوعين : الأول : الرقية بالآيات القرآنية أو الأدعية النبوية التي صحت في السنة ، وهي الرقية الشرعية الصحيحة ، ودليل صحتها قوله تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وكذلك حديث البخاري في رقية اللديغ بفاتحة الكتاب فلما بلغ ذلك النبي ﷺ أقره بقوله : « وما يدرك أنها رقية » .

شروط جواز الرقية :

الأول : أن يعتقد أنها سبب لا تنفع إلا بإذن الله .

الثاني : أن تكون مما لا يخالف الشرع .

الثالث : أن تكون مفهومة معلومة ، فإن كانت من جنس الطلاسم والشعوذة فإنها شرك .

والنوع الثاني من الرقى هو الرقية الممنوعة : وهي الرقية بما لا يفهم من أدعية لم ترد في السنة بل ربما تكون متضمنة لأسماء بعض الجن ، وهذا النوع : من الشرك لقول النبي ﷺ : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » . [رواه أحمد وأبو داود] .

و« التمائم » هي شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين و« التولة » ، شيء يعلقونه على الزوج ، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته ، وهذا شرك لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري للمحبة .

وأما التمائم فهي أيضًا نوعان :

النوع الأول : مختلف في مشروعيته ، وهو ما يعلق على الصبيان من آيات القرآن فقد أباحه بعض العلماء بالشروط الثلاثة السابقة في الرقية ؛ ومنعه آخرون والراجح المنع لأن القرآن لم ينزل ليعلق كتمائم في أعناق الصبيان ؛ ولأنه ذريعة إلى تعليق غيرها من التمائم التي تكون شركًا ، وسد الذرائع مقصود شرعًا ، وهذا هو رأي ابن مسعود رضي الله عنه ، وأصحابه يرون ما يراه .

قال إبراهيم النخعي : (كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن

وغير القرآن) .

النوع الثاني : متفق على أنه شرك ممنوع ، وهو تعليق ما يعتقد أنه يدفع الضر من حسد وغيره كالأحجبة والخرزات التي تعلق في رقاب الأطفال فهذا هو خلاصة كلام العلماء في الرقى والتمائم .

* * *

(٨) بَابُ سَبَبِ الشِّرك

٤٥- وَسَبَبُ الشِّرْكِ هُوَ الْغُلُوُّ فذُو الصَّلاحِ عِنْدهُمْ مَدْعُوُّ
٤٦- أو يعبدون الله عِنْدَ قَبْرِهِ تَبـرُّكًا في زَعـمِهِـمْ بِسِـرِّهِ

والغلو : هو مجاوزة الحد في الثناء مدحًا أو قدحًا وهو هنا : مجاوزة الحد في الثناء مدحًا ، والغلو له أقسام كثيرة ؛ منها : الغلو في العقيدة ، ومنها : الغلو في العبادة ، ومنها : الغلو في المعاملة ، ومنها : الغلو في العادات .

وقد كان الغلو في الصالحين سببًا لأول شرك وقع في أرض الله ، وهو شرك قوم نوح ؛ قال الله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح : ٢٣] .

قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد ، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع كانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبا ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير ، لآل ذي الكلاع ؛ أسماء رجال صالحين من قوم

نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا ، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت . (رواه البخاري ٤٩٢٠) .

فكان الغلو هو السبب الأول للشرك ، وهو أيضًا سبب وقوع هذه الأمة في الشرك كما قال النبي ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان » وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، فتجد بعض الناس يغالي في تعظيم أولياء الله الصالحين حتى يدعوهم من دون الله ، ويطلب منهم ما لا يجوز طلبه إلا من الله ، فيقولون : مدد يا سيدنا الحسين أو : مدد يا بدوي أو حتى : مدد يا رسول الله ، وهذا من مظاهر الغلو ، وهو شرك بالله العظيم لأن الدعاء كما قدمنا عبادة ، بل هو مخ العبادة ، والمدد لا يقدر عليه إلا الله لقوله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال : ٩] .

فهذا مظهر من مظاهر الغلو الموقعة في الشرك نعوذ بالله من

ذلك ، فلا تجد بلدًا مسلمًا إلا وفيه غلو في قبور الصالحين ، وقد يكون وهمًا ، مثل قبر الحسين بن علي رضي اللَّه عنهما ، فأهل العراق يقولون : هو عندنا ، وأهل الشام يقولون : عندنا ، وأهل مصر يقولون : عندنا ، وبعضهم يقول : هو في المغرب ، فصار الحسين رضي الله عنه إما أنه أربعة رجال ، أو مقطع أوصالًا ، أو أنه ليس في قبر منها ، وقد خشي النبي ﷺ على أمته من ذلك فدعا الله عز وجل بقوله : « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد » فالذي يتحرى بعبادته من دعاء أو نذر قبور الصالحين إنما مقصوده صاحب القبر وليس مقصوده العبادة لله عز وجل وإلا لعبد الله في أي مكان ، **ومن الغلو قول البوصيري في قصيدة (البردة) المشهورة في مدح الرسول** ﷺ :

يَا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العممِ
إن لم تكن آخذًا يوم المعاد يدي فضلًا وإلا فقل يا زلة القدمِ
فإن من جودكَ الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا من أعظم الشرك ؛ لأنه جعل الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ ومقتضاه أن الله جل ذكره ليس له فيهما شيء .

وقال : ومن علومك علم اللوح والقلم ، يعني : وليس ذلك

كل علومك ؛ فما بقي لله علم ولا تدبير والعياذ بالله .

قال ابن رجب وغيره : إنه لم يترك لله شيئًا ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ .

ونشهد أن من يقول هذا ؛ ما شهد أن محمدًا عبد الله ، بل شهد أن محمدًا فوق الله ! كيف يصل بهم الغلو إلى هذا الحد ؟ ! وقد نهى النبي ﷺ عن هذا الغلو فيه فعن أنس رضي الله عنه : « أن ناسًا قالوا : يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا ! وسيدنا وابن سيدنا ! فقال : « يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل » . رواه النسائي .

٤٧- وَيَبْتَنُونَ فَوْقَهَا المساجِدا وَيَفْعَلُونَ فِعلَ مِنْ تَهوَّدَا

٤٨- وَذَاكَ إِخْبَارٌ مِنَ الْمَصْدُوقِ مُحذِّرًا بِمَنْطِقِ الشَّفِيقِ

٤٩- حَيْثُ يَقُولُ تَتَّبِعُنَّ السَّنَنْ قِيلَ الْيَهُودُ والنَّصارَى ؟ قال : من ؟ !

ومن مظاهر الغلو التي تفضي إلى الشرك بالله عز وجل اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ؛ إما ببناء المساجد على قبورهم أو بدفنهم في المساجد ، أو حتى بالصلاة عندها .

والقبور لها حق علينا من وجهين :

١- أن لا نفرط فيما يجب لها من الاحترام ؛ فلا تجوز إهانتها ولا الجلوس عليها ، وما أشبه ذلك .

٢- أن لا نغلو فيها فنتجاوز الحد بتشييدها ورفعها ومخالفة هدي النبي ﷺ فيها .

وعن أبي الهياج ، قال : قال لي علي رضي الله عنه : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ : أن لا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته » .

والقبر المشرف : هو الذي يتميز عن سائر القبور ؛ فلا بد أن يسوى ليساويها لئلا يظن أن لصاحب هذا القبر خصوصية ولو بعد زمن : إذ هو وسيلة إلى الغلو فيه .

قال الإمام الشوكاني رحمه الله : اعلم أنه قد اتفق الناس ، سابقهم ولاحقهم ، وأولهم وآخرهم من لدن الصحابة رضوان الله عنهم إلى هذا الوقت - أن رفع القبور والبناء عليها بدعة من البدع التي ثبت النهي عنها واشتد وعيد رسول الله لفاعلها ، ... ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين أجمعين . « شرح الصدور بتحريم

رفع القبور » .

ومناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور :

أن كلًا منهما قد يتخذ وسيلة إلى الشرك ، فإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صوروا صور رجال صالحين ، فلما طال عليهم الأمد عبدوها ، وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتى تجعل أوثانًا تعبد من دون الله .

ولابن جرير بسنده عن مجاهد : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم : ١٩] قال : كان يلت لهم السويق فمات ، فعكفوا على قبره ، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : (كان يلت السويق للحاج) .

فلما مات غلوا في قبره وقالوا : هذا الرجل المحسن الذي يلت السويق للحجاج ويطعمهم إياه ، ثم بعد ذلك عبدوه ؛ فالغلو في القبور يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله ، ولهذا نهى عن تجصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفًا من هذا المحظور العظيم الذي يجعلها تعبد من دون الله .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » . رواه الإمام

أحمد (١/٢٢٩) وأبو داود (٤/٩٥) والترمذي : (٣٢٠) وقال : « حديث حسن » . وزائرات اسم فاعل يصدق بالمرة الواحدة ، وفي حديث أبي هريرة عند الإمام أحمد (٢/٣٣٧) والترمذي (٤/١٢) وقال : « حسن صحيح » : « لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور » بتشديد الواو ، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة أي كثرة الزيارة ، وقوله : « والمتخذين عليها المساجد والسرج » أي توقد عليها السرج ليلًا ونهارًا تعظيمًا وغلوًا .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها ؛ كشفها ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره ؛ غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا . [رواه البخاري : كتاب الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، ومسلم : كتاب المساجد ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور] .

واتخاذ القبور مساجد له معنيان :

الأول : أن تبنى عليها المساجد .

والثاني : أن تتخذ مكانًا للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد فكل

موضع قصدت الصلاة فيه ؛ فقد اتخذته مسجدًا ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدًا ؛ كما قال ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا » .

والخلاصة : أنه لا يجوز بناء المساجد على القبور ؛ لأنها وسيلة إلى الشرك ، وهو دعاء صاحب القبر ، ولا يجوز أيضًا أن تقصد القبور للصلاة عندها ، وهذا من اتخاذها مساجد ؛ لأن العلة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها ، فمن ذهب إلى المقبرة وصلى عند قبر ولي من الأولياء فقد اتخذ هذا القبر مسجدًا ، وصار مستحقًا لما استحقه اليهود والنصارى من اللعنة .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ، ولا تجعلوا قبري عيدًا ، وصلوا علي ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » . [رواه أبو داود بإسناد حسن] .

أي : لا تجعلوها مثل القبور لا تصلون فيها ، وذلك لأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها ، ويؤيده أن في بعض الطرق : « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ، ولا تجعلوها قبورًا » وهذا يدل على أن المراد : لا تدعوا الصلاة فيها ، فهو دليل واضح على أن المقابر

ليست محلًا للصلاة ، وهذا هو الشاهد من الحديث ؛ لأن اتخاذ المقابر مساجد سبب قريب جدًا للشرك .

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله « هل تصح الصلاة على المسجد إذا كان فيه قبر ؛ والناس تجتمع فيه لصلاتي الجماعة والجمعة أم لا ؟ وهل يمهد القبر ، أو يعمل عليه حاجزًا أو حائطًا ؟ فأجاب : الحمد لله ، اتفق الأئمة أنه لا يبنى مسجد على قبر ، لأن النبي ﷺ قال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ؛ فإني أنهاكم عن ذلك وأنه لا يجوز دفن ميت في مسجد فإن كان المسجد قبل الدفن غُيِّر ، إما بتسوية القبر ، وإما بنبشه إن كان جديدًا ، وإن كان المسجد بني بعد القبر ، فإما أن يزال المسجد وإما تزال صورة القبر ، فالمسجد الذي على القبر لا يصلى فيه فرض ولا نفل ، فإنه منهي عنه » . كذا في الفتاوى له (١/١٠٧، ٢/١٩٢) .

وقد تبنت دار الإفتاء في الديار المصرية فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية هذه ، فنقلتها عنه في فتوى لها أصدرتها تنص على عدم جواز الدفن في المسجد ، فليراجعها من شاء في « مجلة الأزهر » (ج١١٢ ص٥٠١ و٥٠٣) .

وقال ابن تيمية في « الاختيارات العلمية » (ص٥٢) : « يحرم الإسراج على القبور ، واتخاذ القبور مساجد عليها ، وبينها ، ويتعين إزالتها ، ولا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين . ونقله ابن عروة الحنبلي في « الكواكب الدراري » (١/٢٤٤/٢) وأقره .

وهكذا نرى أن العلماء كلهم اتفقوا على ما دلت عليه الأحاديث من تحريم اتخاذ المساجد على القبور ، فنحذر المؤمنين من مخالفتهم ، والخروج عن طريقتهم ، خشية أن يشملهم وعيد قوله عز وجل ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] .

وقد أخبر النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق أن الأمة ستتبع اليهود والنصارى في سننها ، وقد تحقق ما أخبر به النبي ﷺ فها هي مساجد المسلمين قد بنيت على القبور كمسجد البدوي ومسجد المرسي ومسجد القناوي ، والمساجد التي يزعم أن فيها قبورًا لآل البيت ، كمسجد الحسين والسيدة زينب ومسجد السيدة نفيسة ، وقد حذر النبي ﷺ من اتباع اليهود والنصارى وأخبر أنه واقع بقوله

ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا : يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » . متفق عليه .

وعن أبي واقد الليثي ؛ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ! إنها السَنَنُ ، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٣٨] لتركبن سنن من كان من قبلكم » . [رواه الترمذي وصححه] .

وقوله : « حدثاء » جمع حديث أي : أنهم قريبو عهد بكفر ، وإنما ذكر ذلك رضي الله عنه للاعتذار لطلبهم وسؤالهم ، ولو وقر الإيمان في قلوبهم لما سألوا هذا السؤال ، و« يعكفون عندها » ، أي : يقيمون عليها ، والعكوف : ملازمة الشيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ﴾ [البقرة : ١٨٧] . وقوله : « ينوطون »

أي : يعلقون بها أسلحتهم تبركًا ، ولهذا تلقب ذات أنواط .

فالصحابة رضي الله عنهم قالوا للنبي ﷺ : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ؛ أي : سدرة نعلق أسلحتنا عليها تبركًا بها ؛ فقال النبي ﷺ : « الله أكبر » كَبَّر استعظامًا لهذا الطلب أي : كيف يقولون هذا القول وهم آمنوا بأنه لا إله إلا الله ؟ !

وقوله : « إنها السَنَنُ » أي : الطرق التي يسلكها العباد ، وقد قاس الرسول ﷺ ما قاله الصحابة رضي الله عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسى حين قالوا : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « لتركبن سنن من كان قبلكم » أي : لتفعلن مثل فعلهم ، ولتقولن مثل قولهم ، وهذه الجملة لا يراد بها الإقرار ، وإنما يراد بها التحذير ؛ لأنه من المعلوم أن سنن من كان قبلنا مما جرى تشبيهه سنن ضالة ، حيث طلبوا آلهة مع الله ؛ فأراد النبي ﷺ أن يحذر أمته أن تركب سنن من كان قبلها من الضلال والغي .

* * *

(٩) بَابٌ من الشرك التَوَكُّلِ على غير الله

٥٠- وَعَمَلُ الْقَلْبِ هُوَ التَّوكُلُ   وَهْوَ عَلَى نَوعينِ فِيمَا يُنْقَلُ
٥١- كِلَاهُمَا شِرْكٌ فَشِرْكٌ أَصْغَرُ   عَلَى الَّذي يَعِيشُ فِيمَا يَقْدِرُ
٥٢- والأكبرُ الثاني عَلَى الأَمْواتِ   فَعَوِّدِ الْقَلْبَ عَلَى الإِخْبَاتِ

التوكل : هو اعتماد القلب على الله وتفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى في حصول المطلوب ، ودفع المكروه ، مع الثقة به .

وليس معنى ذلك ترك الأخذ بالأسباب ، بل الأخذ بالأسباب من تمام التوكل بدليل حديث الرسول ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصًا وتروح بطانًا » فالطير تتوكل على الله وحده توكلًا فطريًا طبيعيًا لا تكلف فيه ، ومع ذلك تأخذ بأسباب طلب الرزق فتغدوا في الصباح الباكر بحثًا عن الرزق فيرزقها الله عز وجل فترجع آخر النهار وقد امتلأت حواصلها بالطعام ، والنبي ﷺ أعظم المتوكلين ، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب ، فكان يأخذ الزاد في السفر ، ولما خرج إلى أُحُدٍ ظاهر بين درعين ، ولما خرج مهاجرًا أخذ من يدله الطريق ، ولم

ينقص ذلك من توكله .

ولا يصح أن يتوكل المسلم على غير الله عز وجل لأن التوكل على غير الله شرك فإن كان على حي حاضر فيما يقدر عليه فهو شرك أصغر لأن التوكل كما عرفناه هو اعتماد القلب فهو عمل قلبي ، والأعمال القلبية لا يصح التوجه بها لغير الله ، وإن كان التوكل على ميت أو غائب فهو شرك أكبر لأنه لا يكون إلا عن اعتقاد في نفع هذا الميت أو الغائب وقدرته وتصرفه في الكون وهذا كله شرك بالله عز وجل .

والتوكل نصف الدين ، ولهذا نقول في صلاتنا : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] فنطلب من الله العون اعتمادًا عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته ، وقال تعالى : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود : ١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود : ٨٨] ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل .

قال تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٢٣] أي : على الله لا على غيره فتقديم المفعول يدل على الحصر . وقال

تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

ولهذا كان السبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب هم من حقق التوحيد بإخلاص التوكل على اللّٰه وحده « هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » .

* * *

(١٠) بَابُ التَّوَسُّلِ

٥٣- ثُمَّ التَّوسُّلُ عَلَى نَوْعَيْنِ ... أَوَّلُهَا الصَّحِيحُ دُونَ مَيْنِ

٥٤- باللهِ والأسماءِ والصّفاتِ ... وَمِثْلُهُ مَا كَانَ بِالطَّاعاتِ

٥٥- والثَّانِي في التَّوسُّل الشّركيُّ ... بِأَيِّ مَخْلُوقٍ وَلَوْ نَبِيُّ

التوسل معناه : اتخاذ الوسيلة ؛ والوسيلة هي « كل ما يوصل إلى المقصود » فهي من الوصل ؛ لأن الصاد والسين يتناوبان كما يقال : صراط ، وسراط ، وبصطة ، وبسطة .

والتوسل في دعاء الله تعالى أن يقرن الداعي بدعائه ما يكون سببًا في قبول دعائه ، ولا بد من دليل على كون هذا الشيء سببًا للقبول ؛ ولا يعلم ذلك إلا من طريق الشرع ؛ فمن جعل شيئًا من الأمور وسيلة له في قبول دعائه بدون دليل من الشرع فقد قال على الله ما لا يعلم .

والتوسل في دعاء الله تعالى قسمان :

القسم الأول : أن يكون بوسيلة جاءت بها الشريعة وهو أنواع :

النوع الأول: التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] . فيقول : اللهم يا رحيم ارحمني ، ويا غفور اغفر لي ، ونحو ذلك ؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي » .

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بالإيمان به وطاعته كقوله تعالى عن أولي الألباب : ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

النوع الثالث: أن يتوسل إلى الله بذكر حال الداعي المبينة لاضطراره وحاجته كقول موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص : ٢٤] .

النوع الرابع: أن يتوسل إلى الله بدعاء من ترجى إجابته كطلب الصحابة رضي الله عنهم من النبي ﷺ أن يدعو الله لهم مثل قول الرجل الذي دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال : « ادع الله أن يغيثنا » ؛ وقول عُكَّاشَة بن محصن للنبي ﷺ : ادع الله أن

يجعلني منهم ، وهذا إنما يكون في حياة الداعي ، أما بعد موته فلا يجوز ؛ لأنه لا عمل له : فقد انتقل إلى دار الجزاء ؛ ولذلك لما أجدب الناس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يطلبوا من النبي ﷺ أن يستسقي لهم ؛ بل استسقى عمر بالعباس عم النبي ﷺ فقال له : قم فاستسق ؛ فقام العباس فدعا .

القسم الثاني : أن يكون التوسل بوسيلة لم يأت بها الشرع وهي نوعان :

أحدهما : أن يكون بوسيلة أبطلها الشرع ، كتوسل المشركين بآلهتهم وبطلان هذا ظاهر .

الثاني : أن يكون بوسيلة سكت عنها الشرع وهذا محرم ؛ وهو نوع من الشرك ، مثل أن يتوسل بجاه شخص ذي جاه عند الله ، فيقول : « أسألك بجاه نبيك » : فلا يجوز ذلك لأنه إثبات لسبب لم يعتبره الشرع ، ولأن جاه ذي الجاه ليس له أثر في قبول الدعاء ؛ لأنه لا يتعلق بالداعي ، ولا بالمدعو ؛ وإنما هو من شأن ذي الجاه وحده ، فليس بنافع لك في حصول مطلوبك ؛ أو دفع مكروبك ، ووسيلة الشيء ما كان موصلًا إليه ؛ والتوسل بالشيء إلى ما لا يوصل إليه

نوع من العبث ، فلا يليق أن تتخذه فيما بينك وبين ربك وأما حديث « توسلوا بجاهي ، فإن جاهي عند الله عظيم » فإنه موضوع .

قال شيخ الإسلام : لا أصل له . « اقتضاء الصراط المستقيم » لشيخ الإسلام (٢/٥ ٤١) . وقال الألباني : لا أصل له . « الضعيفة » (٢٢) .

وكذلك حديث : « من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وأسألك بحق ممشاي هذا .. أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له ألف ملك » فقد ضعفه المنذري وقال البوصيري : سنده مسلسل بالضعفاء ، وقال الألباني : ضعيف . « الترغيب والترهيب » للمنذري (٣/٢٧٢) و« سنن ابن ماجه » (١/ ٢٥٦) .

وإذا أردت أن تتوسل بالنبي ﷺ على وجه صحيح فقل : اللهم بإيماني برسولك أو بمحبتي لرسولك ، وما أشبه ذلك ؛ فهذه الوسيلة صحيحة .

* * *

(١١) بَابُ طَاعَةِ الْعُلَمَاءِ والأُمَراءِ في معصية الله

٥٦- وَمَنْ أَطَاعَ السَّادةَ العُلَماء   في غَيْرِ مَعْروفٍ أَوِ الأمراء

٥٧- يَجْعَلُهُمْ آلِهَةً كالصُّوفِي   وَإِنَّمَا الطَاعَةُ في الْمَعْرُوفِ

٥٨- في آيَة التَّوبَةِ وهْيَ اتَّخَذُوا   دَلِيلُ مَا أَقُولُ فِيمَا أَخَذُوا

المراد بالعلماء: العلماء بشرع الله، وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له، وهذان الصنفان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩] وأولو الأمر هم العلماء، لأنه يستند إليهم في أمر الشرع والعلم به، والأمراء، لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا استقام العلماء والأمراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور.

فجعل الله طاعته مطلقة، وطاعة رسوله مطلقة، وطاعة أولي الأمر مقيدة بالطاعة في المعروف، ولهذا لم يكرر الفعل ﴿أَطِيعُواْ﴾، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كما روى البخاري عن علي رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سرية، وأَمَّرَ عليهم رجلًا من الأنصار

وأمرهم أن يطيعوه ، فغضب عليهم وقال : أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى . قال : عزمت عليكم لما جمعتم حطبًا وأوقدتم نارًا ، ثم دخلتم فيها ، فجمعوا حطبًا فأوقدوا ، فلما هموا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض ، قال بعضهم : إنما تبعنا النبي ﷺ فرارًا من النار ، أفندخلها ، فبينما هم كذلك إذ خمدت النار ، وسكن غضبه ، فذكر للنبي ﷺ فقال : « لو دخلوها ما خرجوا منها أبدًا ، إنما الطاعة في المعروف » (٧١٤٥) .

فمن أطاع العلماء أو الأمراء في مخالفة أمر الله ورسوله ، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله ، لأنه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعًا يعمل به ، وقد قال ابن عباس : « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ﷺ وتقولون : قال أبو بكر وعمر ! » .

وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى والتعصب المذهبي الذي فرق الأمة ، وبعض الناس يرتكب خطأً فاحشًا إذا قيل له : قال رسول الله ﷺ ، قال : لكن في الكتاب الفلاني كذا وكذا ، فعليه أن يتقي الله الذي قال في كتابه : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٦٥] ، ولم يقل ماذا أجبتم فلانًا وفلانًا ، أما صاحب الكتاب ، فإنه إن عُلِم أنه يحب الخير ويريد الحق ، فإنه يدعى له بالمغفرة والرحمة إذا أخطأ ، ولا يقال : إنه معصوم ، يعارض بقوله قول الرسول الله ﷺ .

وعن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية : « ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣١]. فقلت له : إنا لسنا نعبدهم . قال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ . فقلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم »(١) . [رواه أحمد والترمذي وحسنه] .

والأحبار : جمع حبر بفتح الحاء وكسرها ، وهو العالم الواسع العلم ، والرهبان : جمع راهب ، وهو العابد الزاهد .

ومعنى ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي : مشاركين لله عز وجل في

---

(١) **ضعيف** : رواه الترمذي (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب . وليس هو في مسند أحمد المطبوع .

التشريع، لأنهم يحلون ما حرم الله فيحله هؤلاء الأتباع، ويحرمون ما أحل الله فيحرمه الأتباع، وبدأ بتحريم الحلال، لأنه أعظم من تحليل الحرام، وكلاهما محرم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

ووجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة الطاعة، وطاعة غير الله في معصية الله؛ عبادة للمطاع، وذلك كما يفعله الصوفي بالمريد؛ حيث يطيعه المريد طاعة مطلقة، فالأصل عندهم (لا تعترض فتنطرد) وكما يفعله علماء السوء الذين يحلون ما حرم الله سبحانه، ويعلم الناس أنهم علماء سوء، ومع ذلك يتبعونهم من باب قولهم: «علقها برقبة عالم واخرج منها سالم»، وهذا من أقبح الجهل والجهالة، وكما يفعله حكام السوء بمحكوميهم حيث يحكمونهم بغير شرع الله عز وجل فيتبعونهم، والواجب على الحكام والعلماء والناس أجمعين هو طاعة الله رب العالمين، وتحكيم شرعه المبين.

(١٢) بَابُ أُمُورِ الْجَاهِلِيةِ

٥٩- وأَرْبعٌ في أُمَّةِ الْمَعْصُومِ مِنْهُنَّ الاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ
٦٠- وَالنَّوْحُ ثُمَّ الْفَخْرُ بِالأحْسَابِ وَمِثْلُهُنَّ الطَّعْنُ في الأَنْسَابِ

الاستسقاء: طلب السقيا، كالاستغفار: طلب المغفرة، والاستعانة: طلب المعونة، والاستعاذة: طلب العوذ، والاستهداء: طلب الهداية؛ لأن مادة استفعل في الغالب تدل على الطلب.

والاستسقاء بالأنواء: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء وهو شرك أصغر، وقد يكون شركًا أكبر إن اعتقد أنها فاعلة بنفسها.

قال أبو عبيد: الأنواء ثمانية وعشرون نجمًا معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها من الصيف والشتاء والربيع والخريف، يسقط منها في كل ثلاث عشرة ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته وكلاهما معلوم مسمى، وانقضاء هذه الثمانية وعشرين كلها مع انقضاء السنة ثم يرجع الأمر إلى النجم الأول مع استئناف السنة المقبلة، وكانت العرب في الجاهلية إذا سقط

منها نجم وطلع آخر قالوا : لا بد من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح ، فينسبون كل غيب يكون عند ذلك إلى ذلك النجم فيقولون مطرنا بنوء الثريا والدبران والسماك ؛ والأنواء واحدها نوء ، قال : وإنما سمي نوءًا ؛ لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق أي نهض وطلع ، وذلك النهوض هو النوء فسمي النجم به .

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة وقال : والنائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » . (رواه مسلم : ٢٢٠٣) .

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه قال : « صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف ، أقبل على الناس ، فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال . مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي

مؤمن بالكواكب » [البخاري: ١٠٣٨، ومسلم: ٢٤٠، وموطأ مالك: ٤٥٢].

ونسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١- نسبة إيجاد ، وهذه شرك أكبر .

٢- نسبة سبب ، وهذه شرك أصغر .

٣- نسبة وقت ، وهذه جائزة بأن يريد بقوله : مطرنا بنوء كذا ، أي : جاءنا المطر في هذا النوء ووقته .

ولهذا قال العلماء : يحرم أن يقول : مطرنا بنوء كذا ، ويجوز مطرنا في نوء كذا ، وفرقوا بينهما أن الباء للسببية ، وفي للظرفية .

٦١- وَكُلُّهَا أُمُورٌ جَاهِلِيَّةْ كَالْحُكْمِ وَالظَّنِّ مَعَ الْحَمِيَّةْ

٦٢- وَيُكْمِلُ الثَّلاثَةَ السُّفُورُ ....

هذه الأمور الأربعة : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، كلها من أمور الجاهلية وإنما كانت من أمور الجاهلية : إما من الجهل الذي هو ضد العلم ، أو من الجهالة التي هي السفه ، وهي ضد الحكمة .

وأمور الجاهلية كثيرة جدًا ، وقد جمع كثير منها في كتاب

(مسائل الجاهلية) وقد نسب الله عز وجل في قرآنه أربعة أمور إلى الجاهلية ، وهذه الأربعة هي أصول الجاهلية وكل أمر من أمور الجاهلية إنما يرجع إلى هذه الأربعة ؛ وهي :

١- حكم الجاهلية ، وهو أصل كل ظلم وفتنة .

٢- ظن الجاهلية ، وهو أصل لكل عقائد الشرك والكفر .

٣- حمية الجاهلية ، وهي أصل لكل خلق ذميم وخلاف عقيم .

٤- تبرج الجاهلية ، وهو أصل لكل فساد وفاحشة .

أما حكم الجاهلية : فهو كل حكم بخلاف حكم الله عز وجل قال الله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠] . فدلت الآية على أنه لا أحد أحسن حكمًا من حكم الله ولا مساوٍ لحكم الله ، ومن ابتغى حكم الجاهلية أو رضي به فقد كفر بالله عز وجل ، فضلًا عمن شرعه أو حكم به ، وقال الله تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف : ٤٠] ، فالحكم كله لله وحده ، فمن شرع للناس شرعًا سوى شرع الله أو حكم به ورأى أنه أحسن من شرع الله وأنفع

للعباد ، أو أنه مساوٍ لشرع الله ، أو أنه يجوز ترك شرع الله إليه ، فإنه كافر لأنه جعل نفسه ندًا لله عز وجل سواء في العبادات أو المعاملات ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة : ٤٥] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة : ٤٧] ، هذا هو الحكم العام لهذه المسألة ، وأما التعيين فاعلم أنه لا يجوز لأحد من الناس أن يكفر من حكم بغير ما أنزل الله بمجرد الفعل من دون أن يعلم أنه استحل ذلك ، فالتعميم شيء والتعيين شيء آخر ، لأن الكفر كفران : أكبر وأصغر ، كما أن الظلم ظلمان ، وهكذا الفسق فسقان : أكبر وأصغر ، فمن استحل الحكم بغير ما أنزل الله ، أو الزنى ، أو الربا ، أو غيرها من المحرمات المجمع على تحريمها فقد كفر كفرًا أكبر ، وظلم ظلمًا أكبر ، وفسق فسقًا أكبر ، ومن فعلها بدون استحلال كان كفره كفرًا أصغر ، وظلمه ظلمًا أصغر ، وهكذا فسقه ، لقول النبي ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . أراد بهذا ﷺ الفسق

الأصغر ، والكفر الأصغر ، وأطلق العبارة تنفيرًا من هذا العمل المنكر ، وهكذا قوله ﷺ: « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت » [أخرجه مسلم في صحيحه] . وقوله ﷺ: « لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض » . [أخرجه البخاري ومسلم من حديث جرير رضي الله عنه] . والأحاديث في هذه المعنى كثيرة .

فكل المعاصي هي من الكفر العملي ، فلا يجوز أن نكفر العصاة المتلبسين بشيء من المعاصي لمجرد ارتكابهم لها ، واستحلالهم إياها عمليًا ، إلا إذا ظهر لنا منهم - يقينًا - ما يكشف لنا عما في قرارة نفوسهم أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله اعتقادًا ، ومن الأعمال أعمال قد يكفر بها صاحبها كفرًا اعتقاديًا ، لأنها تدل على كفره دلالة قطعية يقينية ، بحيث يقوم فعله هذا منه مقام إعرابه بلسانه عن كفره كمثل أن يدوس المصحف ، مع علمه به وقصده له ونحن لا نستطيع أن نعلم ما في قلب الفاسق إلا إذا عبر عما في قلبه بلسانه ، أما عمله فينبيء أنه خالف الشرع مخالفة عملية ، فنحن نقول : إنك خالفت ، وإنك فسقت ، لكن لا نقول : إنك كفرت وارتددت عن

دينك ، وعليه فإن الحكم بغير ما أنزل الله ليس بكفر مخرج عن الملة ، لكنه كفر عملي ، لأن الحاكم بذلك خرج عن الطريق الصحيح .

وأما ظن الجاهلية : فهو ظن الملة الجاهلية التي لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته ، فهو ظن باطل مبني على الجهل .

قال ابن القيم : فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدز الله وحكمته ، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح وإنما كان هذا ظن السوء ، لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق .

وأما حمية الجاهلية : فهي كل حمية تحمل على رد الحق ونصر الباطل كما فعل المشركون حين صدوا المسلمين عن البيت الحرام ، قال الله تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح : ٢٦] . قال الطبري : وكان حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي ، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت . (تفسير الطبري ج : ٢٦، ص : ١٠١) .

وكما قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ

بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦] . فهذه العزة التي تحمل على الإثم هي حمية الجاهلية، وكل حمية حملت على الإثم فهي من حمية الجاهلية .

وأما تبرج الجاهلية : فهو خروج النساء من بيوتهن التي أمرن بالقرار فيها، وترك الحجاب الذي أوجبه الله عليهن بقوله تعالى : ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [الأحزاب: ٣٣] . والتبرج إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال، وتبرجت المرأة : أظهرت وجهها، وإذا أبدت المرأة محاسن جيدها ووجهها قيل تبرجت، والسفور خاص بكشف الغطاء عن الوجه، فهو أدنى دركات التبرج قال الشاعر :

وَكُنْتُ إِذَا أَتَيْتُ لَيْلَىٰ تَبَرْقَعَتْ فَقَدْ رَابَنِي ذَا الْيَوْمَ مِنْهَا سُفُورُهَا

والسفور : مأخوذ من السَّفر، وهو كشف الغطاء، فيقال : امرأة سافر، وامرأة سافرة، إذا كشفت الغطاء والخمار عن وجهها، ولهذا قال سبحانه : ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٨] أي : مشرقة فخص سبحانه الإسفار بالوجوه دون بقية البدن .

والتبرج في الأصل الظهور، ومعناه : إظهار المرأة شيئًا من بدنها

أو زينتها ، وقيل : إن التبرج مأخوذ من ظهور المرأة من برجها أي : قصرها ، والبروج : القصور كما في قول الله تعالى ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء : ٧٨] ، وبرج المرأة بيتها ، والله تعالى يقول في حق النساء : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، وإنما سُمِّي القصر برجًا لسعته ، مأخوذ من البرج ، وهو السعة .

وبما تقدم يُعلم أن السفور أخص من التبرج ، وأن المرأة إذا كشفت عن وجهها كله أو عن جزء منه فهي سافرة متبرجة ، وإذا كشفت عما سوى الوجه من بدنها أو الزينة المكتسبة فهي متبرجة حاسرة .

والتبرج يكون بأمور .

منها خلع الحجاب ، وإظهار المرأة شيئًا من بدنها أمام الرجال الأجانب عنها .

ومنها التستر بملابس ضيقة أو شفافة أو ملفتة لأنظار الرجال بألوانها البراقة وما فيها من زينة ، أو توسيع النقاب بحيث يظهر خدود المرأة وعيونها بألوانها الفاتنة .

قال الذهبي رحمه الله : « ومن الأفعال التي تُلعن عليها المرأة إظهار الزينة والذهب واللؤلؤ من تحت النقاب ، وتطييبها بالمسك والعنبر والطيب إذا خرجت ، ولبسها الصباغات والأزر والحرير والأقبية القصار مع تطويل الثوب وتوسعة الأكمام وتطويلها إلى غير ذلك إذا خرجت وكل ذلك من التبرج الذي يمقت اللّٰه عليه ، ويمقت فاعله في الدنيا والآخرة » ، ويكون التبرج بتثني المرأة في مشيتها وتبخترها وترفلها وتكسرها أمام الرجال .

ويكون التبرج بالضرب بالأرجل ، ليعلم ما تخفي من زينتها ، وهو أشد تحريكًا للشهوة من النظر إلى الزينة .

ويكون التبرج بالخضوع بالقول والملاينة بالكلام .

ويكون التبرج بالاختلاط بالرجال ، وملامسة أبدانهن أبدان الرجال ، بالمصافحة والتزاحم في المراكب ونحوها .

٦٢- .... قَدْ أَفْلَحَ الدَّاعِيَةُ الصَّبُورُ

٦٣- إِذْ لَا تَزَالُ فِرْقَةٌ مَنْصُورَةْ مِنْ أُمَّةِ الرَّسُولِ في الْمَعْمُورَةْ

وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الدعوة إلى الله عز وجل ، وأنها من الفرائض ، والأدلة في ذلك كثيرة ، منها قوله

سبحانه وتعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . ومنها قوله جل وعلا : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل : ١٢٥] . وقد اتفق العلماء على أن الدعوة إلى الله عز وجل فرض كفاية ، بالنسبة إلى الأقطار التي يقوم فيها الدعاة ، وإذا لم يقم أهل الإقليم بالدعوة ، صار الإثم عامًا ، وصار الواجب على الجميع ، وعلى كل إنسان أن يقوم بالدعوة ، حسب طاقته وإمكانه ، وأما الشيء الذي يدعى إليه ، ويجب على الدعاة أن يوضحوه للناس ، فهو الدعوة إلى صراط الله المستقيم ، وهو الإسلام دين الله الحق ، كما قال سبحانه : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ فسبيل الله جل وعلا هو الإسلام لا إلى مذهب فلان ولا إلى رأي فلان ، ولكن إلى دين الله إلى صراط الله المستقيم ، الذي بعث الله به نبيه وخليله محمدًا عليه الصلاة والسلام ، وهو ما دل عليه القرآن العظيم والسنة المطهرة الثابتة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وعلى رأس ذلك الدعوة إلى العقيدة الصحيحة ، وإلى الإخلاص لله وتوحيده بالعبادة ، والإيمان

به وبرسله ، والإيمان باليوم الآخر ، وبكل ما أخبر الله به ورسوله هذا هو أساس الصراط المستقيم وعليك أن تخلص لله عز وجل في دعوتك ، وأن تكون على بينة لا تكن جاهلًا بما تدعو إليه وأن تكون حليمًا في دعوتك ، ورفيقًا فيها ، محتملًا صبورا ، كما فعل الرسل عليهم الصلاة والسلام ، إياك والعجلة ، وإياك والعنف والشدة ، عليك بالصبر ، عليك بالحلم ، عليك بالرفق ، في دعوتك ، وأن تكون قدوة صالحة فيما تدعو إليه .

* * *

(١٣) بَابُ السِّحْرِ

٦٤- وَالجِبْتُ والسِّحْرُ هُمَا سِيَّانِ   وَكُفْرُ مُسْتَعْمِلِهِ قَوْلَان

٦٥- دَلِيلُ كُفْرِهِ أَتَى في البقرة   وَحَدُّ سَاحِرٍ بِالسَّيْفِ نَحْرَه

٦٦- وَهْوَ حَقِيقَةٌ وَبِالإِجْمَاعِ   كَالصَّرْف وَالْعَطْفِ عَلَى أَنْوَاعِ

السحر لغةً : ما خفي ولطف سببه ، ومنه سمي السَّحَر لآخر الليل ، لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية ، وكذلك سمي السَّحُور لما يؤكل في آخر الليل لأنه يكون خفيًا ، فكل شيء خفي سببه يسمى سحرًا ، والجبت مثله فهما سيان في الحقيقة ، قال تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء : ٥٠] . قال عمر : الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان .

وأما السحر في الشرع ، فإنه ينقسم إلى قسمين :

أ- شرك : وهو الذي يكون بواسطة الشياطين يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور .

ب- عدوان وفسق : وهو الذي يكون بواسطة العقاقير ونحوها .

فمن كان سحره بواسطة الشياطين فإنه يكفر؛ لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]. أي: ماله من نصيب، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق، فمقتضاه أن عمله حابط باطل، لكن إما أن ينتفي النصيب انتفاءً كليًا فيكون العمل كفرًا، أو ينتفي كمال النصيب فيكون فسقًا كمن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوهما، وهو من أكبر الكبائر فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات

الغافلات المؤمنات » .

وأما حد الساحر فإنه يقتل على كل حال ، فإن كان سحره كفرًا ؛ قتل ردة ، وإن كان سحره دون الكفر ؛ قُتِلَ قَتْلَ الصائل ، لأنهم يسعون في الأرض فسادًا ، وفسادهم من أعظم الفساد ، فقتلهم واجب على الإمام ، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم ؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم ، وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم ، وارتدع الناس عن تعاطي السحر ، فعن جندب مرفوعا : « حد الساحر ضربة بالسيف » . [رواه الترمذي وقال : الصحيح أنه موقوف] .

والسحر له حقيقة ويؤثر بلا شك ، لكنه لا يؤثر بقلب الأعيان إلى أعيان أخرى ؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل وإنما يخيل إلى المسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشى وما أشبه ذلك ، كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة فرعون ، حيث كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، ومن تأثيره ما يسمى عندهم بالصرف والعطف ، فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى ، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء ،

والصرف بالعكس من ذلك ، فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئًا فشيئًا حتى يهلك ، وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه ، وفي عقله ، فربما يصل إلى الجنون والعياذ بالله .

والسحر أنواع كثيرة منها العيافة : وهي زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل ، فعند العرب قواعد في هذا الأمر فإذا زجر الطائر وذهب شمالًا تشاءم ، وإذا ذهب يمينا تفاءل ، وإن ذهب أمامًا ، فيتوقفون أو يعيدون الزجر .

ومنها الطرق : وهو الخط في الأرض يضربون به على الرمل على سبيل السحر ، والكهانة ويفعله النساء غالبا .

ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لا حقيقة له فماذا يعني كون الطائر يذهب يمينًا أو شمالًا أو أمامًا أو خلفًا ؟ فهذا لا أصل له وليس بسببٍ شرعي ، ولا حسي ، فإذا اعتمد الإنسان على ذلك ؛ فقد اعتمد على أمر خفي لا حقيقة له ، وهذا سحر كما سبق ، وكذلك الطرق من السحر ؛ لأنهم يستعملونه في السحر ، ويتوصلون به إليه .

٦٧- وَالنُّشْرَةُ اعْلَمْهَا فَحَلُّ السِّحْرِ تَجُوزُ إِنْ كَانَتْ بِآيِ الذِّكْرِ

٦٨- وَإِنْ تَكُنْ بِالسِّحرِ لَا تَحِلُّ فَإِنَّهَا شِرْكٌ يَقُولُ الْكُلُّ

قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن؛ فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية المباحة؛ فهذا جائز.

وقال بعض الفقهاء: يجوز حل السحر بالسحر للضرورة، واستدلوا بما رواه البخاري عن قتادة قال: قلت لابن المسيب: «رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع، فلم ينه عنه».

وقوله: به طب أي: سحر، وسمي السحر طبًا من باب التفاؤل، كما سمي اللديغ سليمًا والكسير جبيرًا، وكأن ابن المسيب رحمه الله قسم السحر إلى قسمين: ضار، ونافع، فالضار: محرم، لقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:

١٠٢] والنافع : لا بأس به ، وهذا ظاهر ما روي عنه ، وأجاب بعض أهل العلم بأن المراد به ما لا يعلم عن حاله ، هل هو سحر ، أم غير سحر ؟ أما إذا علم أنه سحر فلا يحل وعلى كل حال حتى ولو كان ابن المسيّب ومن فوق ابن المسيّب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز ؛ فلا يلزم من ذلك أن يكون جائزًا في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة ، وقد سُئل الرسول ﷺ عن النشرة ؟ فقال : (هي من عمل الشيطان) .

٦٩- وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِعِلْمِ الْغَيْبِ   وَمُـدَّعِيـه كَـافِـرٌ بِـالْـكُـتُـبِ

٧٠- وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا اوْ عَرَّافًا   صَـلَاتُـهُ مَـرْدُودَةٌ لَـوْ طَـافَـا

الكاهن : واحد الكهان ، وهم قوم تتصل بهم الشياطين التي تسترق السمع من السماء ، وتخبرهم به ، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة ، ويخبر الناس ، فإذا وقع مما أخبر به شيء ؛ اعتقده الناس عالمًا بالغيب ، فصاروا يتحاكمون إليهم .

وليس من الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب ، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر .

قال أبو العباس : العراف : اسم للكاهن والمنجم والرمال

ونحوهم ، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق ، وهذا المعنى أعم ، ويدل عليه الاشتقاق ، إذ هو مشتق من المعرفة ، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور ، وادعى بها المعرفة .

وسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام :

القسم الأول : أن يسأله سؤالًا مجردًا ، فهذا حرام لقول النبي ﷺ : « من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا » ، فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه ؛ إذ لا عقوبة إلا على فعل محرم .

القسم الثاني : أن يسأله فيصدقه ، ويعتبر قوله ؛ فهذا كفر لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن لقول النبي ﷺ : من أتى عرافًا أو كاهنًا ، فصدقة بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ ، ووجه ذلك : أن ما أنزل على محمد ﷺ قال الله تعالى فيه : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل : ٦٥] ، وهذا من أقوى طرق الحصر ، لأن فيه النفي والإثبات ، فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله ؛ فهو كافر كفرًا أكبر مخرجًا من الملة ، وإن كان جاهلًا ولا يعتقد أن القرآن فيه

كذب ، فكفره كفر دون كفر .

القسم الثالث : أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه ، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه ، وهذا مطلوب ، وقد يكون واجبًا ، وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد فقال : ماذا خبأت لك ، ؟ قال : الدخ ، فقال : أخسأ فلن تعدو قدرك ، فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره له ؛ ليختبره به .

* * *

(١٤) بَابُ التَّطَيُّرِ

٧١- وَتَحْرُمُ الطِّيَرَةُ وَالتَّشَاؤُمُ وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا بَلْ يُقْدِمُ
٧٢- مُرَدِّدًا دُعَاءَهَا يُحَوْقِلُ وَإِنَّمَا يُذْهِبُهَا التَّوَكُّلُ
٧٣- وَشِرْكٌ مَنْ تَرُدُّهُ قَدْ قَالُوا وَيُعْجِبُ الرَّسُولَ مِنْهَا الفالُ

التطير في اللغة : مصدر تطير ، وأصله مأخوذ من الطير ؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير ، فإن ذهب إلى جهة اليمين تيامن وأقدم ، وإن ذهب إلى جهة الشمال تشاءم وأحجم .

أما في الاصطلاح ؛ فهي : التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم .

بمرئي : كما لو رأي طيرًا فتشاءم لكونه موحشًا ، أو مسموع : كمن هم بأمر فسمع أحدًا يقول لآخر : يا خسران ، أو يا خائب فيتشاءم ، أو معلوم : كالتشاؤم ببعض الأيام أو الشهور أو السنوات .

واعلم أن التطير ينافي التوحيد ، ومنافاته له من وجهين :

الأول : أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله .

الثاني : أنه تعلق بأمر لا حقيقة له ، بل هو وهم وتخييل ؛

فيدخل في أنواع السحر المحرم.

والمتطير لا يخلو من حالين:

الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة، وهذا من أعظم التطير.

الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهَمٍّ يخشى من تأثير هذا المتطير به.

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشراح صدر واعتماد على الله عز وجل.

والطيرة نوع من أنواع السحر، لأنها تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، فعن قبيصة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قال: إن العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول». و«لا» هنا نافية للجنس؛ فنفى الرسول ﷺ العدوى كلها، والعدوى: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، والهامة بتخفيف الميم فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها طير معروف يشبه البومة، تزعم العرب أنه إذا قتل

القتيل ، صارت عظامه هامة تطير وتصرخ حتى يؤخذ بثأره .

الثاني : أن الهامة هي الطير المعروف ، لكنهم يتشاءمون بها ، فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت قالوا : إنها تنعق به ليموت .

وصفر : قيل : إنه شهر صفر : كانت العرب يتشاءمون به ولا سيما في النكاح ، وقيل : إنه داء في البطن يصيب الإبل وينتقل من بعير إلى آخر ، وعلى هذا فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام ، والأزمنة لا تأثير لها ؛ فصفر كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر ، وبعض الناس إذا انتهى من شيء في صفر أرخ ذلك وقال : انتهى في صفر الخير ، وهذا من باب مداواة البدعة ببدعة ، فهو ليس شهر خير ولا شر ، أما شهر رمضان فلا شك أنه شهر خير ، وقولهم : رجب المعظم ، بناء على أنه من الأشهر الحرم .

ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال : خيرًا إن شاء الله ، فلا يقال : خير ولا شر ، بل هي تنعق كبقية الطيور .

(١٥) بَابُ التَّنْجِيمِ

٧٤- ثُمَّ النُّجُومُ زِينَةُ السَّمَاءِ وَرَجْمُ شَيْطَانٍ عَنِ الأَنْبَاءِ

٧٥- وَلِلْهُدَى عَلَامَةٌ عَلَى الطُّرُقْ فَمَنْ يُحَاوِلْ غَيْرَهُ فَمَا صَدَقْ

التنجيم : مصدر نجم أي : تعلم علم النجوم ، أو اعتقد تأثير النجوم .

قال البخاري في صحيحه : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجومًا للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به .

وقد دل القرآن الكريم على هذه الحكم الثلاث ، وهي :

الأولى : زينة للسماء ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك : ٥] ، لأن الإنسان إذا رأى السماء صافية في ليلة غير مقمرة يجد لهذه النجوم من الجمال العظيم مالا يعلمه إلا الله .

الثانية : رجومًا للشياطين : قال تعالى : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا

مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٩].
والرجم: الرمي.

الثالثة: علامات يهتدى بها، من قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. والنجم: اسم جنس يشمل كل نجم يهتدى به.

٧٦- وَعِلْمُهَا نَوْعَانِ فَالتَّسْيِيرُ أَجَازَ مَا تَحْتَاجُه الْجُمْهُورُ

٧٧- وَالثَّانِ عِلْمٌ بَاطِلٌ مُحَرَّمُ يُعْرَفُ بالتَّأْثِير فِيمَا يُزْعَمُ

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

١- علم التسيير. ٢- علم التأثير.

فالأول: علم التسيير، وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يُستدل بسيرها على المصالح الدينية؛ فهذا مطلوب.

النوع الثاني: هو ما يعرف بتعلم منازل القمر، فالقمر له منزلة كل ليلة حتى يتم ثمانيًا وعشرين وفي تسع وعشرين وثلاثين لا يظهر في الغالب، وهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون، والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر لمجرد معرفة الوقت بها.

الثاني: علم التأثير: وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة ، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث ، والشرور ، فهذا كفر أكبر .

٢- أن يجعلها سبب يدعي به علم الغيب فيستدل بحركاتها ، وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا ، مثل أن يقول : هذا الإنسان ستكون حياته شقاء؛ لأنه ولد في النجم الفلاني ، وهذا حياته ستكون سعيدة ، لأنه ولد في النجم الفلاني ، فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب ، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة .

٣- أن يعتقدها سببًا لحدوث الخير والشر ، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم ، وذلك بعد وقوعه ، فهذا شرك أصغر .

وهذا النوع يعتبر نوعًا من السحر فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » . رواه أبو داود وإسناده صحيح .

واقتبس : أي تعلم : لأن التعلم بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة ، وشعبة : أي : طائفة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ [الحجرات : ١٣] . أي : طوائف وقبائل .

(١٦) بَابُ الشَّفَاعَةِ

٧٨- وَبَعْد فَالشَّفَاعَةُ لَهَا قِسْمَانِ كِلَاهُمَا في مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

٧٩- مَنْفِيَّةٌ وَهْيَ عَنَ اهْلِ الشِّرْكِ وَلَيْسَ في بُطْلَانِهَا مِنْ شَكِّ

الشفاعة لغةً : اسم من شفع يشفع ، إذا جعل الشيء اثنين ، والشفع ضد الوتر ، قال الله تعالى : ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر : ٣] .

واصطلاحًا : التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة .

مثال جلب المنفعة : شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها ، ومثال دفع المضرة : شفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها .

ويقصد بها أمران ، هما :

١- إكرام الشافع .

٢- نفع المشفوع له .

قال الله عز وجل : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام : ٥١] . ففي هذه الآية نفي الشفاعة من دون الله ، أي من دون إذنه ، ومفهومها أنها

ثابتة بإذنه ، وهذا هو المقصود ، فالشفاعة من دونه مستحيلة ، وبإذنه جائزة وممكنة .

بهذا تنقسم الشفاعة إلى قسمين :

الأول : الشفاعة المنفية ، وهي التي يدعيها المشركون فيما يدعونه من آلهتهم الباطلة ، وأدلة بطلان هذه الشفاعة في القرآن كثيرة جدًا ، ومنها قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ : ٢٢- ٢٣] .

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! جُهِدَتِ الأنفس ، وضاعت العيال ، ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام ، فاستسق لنا ربك ، فإنا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله ، فقال النبي ﷺ : سبحان الله ! سبحان الله ! فما زال ﷺ يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : « ويحك !أتدري ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه » رواه أبو داود ، والاستشفاع بالله

على خلقه تنقص لله عز وجل، لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه والله عز وجل لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحد، لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعًا، ولهذا أنكر النبي ﷺ ذلك على الأعرابي، وقال: «سبحان الله! سبحان الله!» استعظامًا لهذا القول، وتنزيهًا لله عز وجل عما لا يليق به من جعله شافعًا بين الخلق وبين الرسول ﷺ.

٨٠- ثَانِيهُمَا شَفَاعةٌ بِإِذْنِهِ لِمَنْ يَكُونُ مُؤْمِنًا بِدِينِهِ
٨١- دَلِيلُهَا في آيةِ الكُرسيِّ مِثَالُهَا شَفَاعَةُ النَّبِيِّ
٨٢- لَهُ شَفَاعَاتٌ كَفَضِّ الْمَوْقِفِ لِيَدْخُلَ الْجَنَّةَ كُلُّ مُقْتَفِي

والقسم الثاني من الشفاعة هي الشفاعة الصحيحة المثبتة ولابد أن يجتمع لها شرطان:

١- الإذن من الله عز وجل.

٢- رضاه عز وجل عن الشافع والمشفوع له.

وأدلة ثبوت هذا النوع كثيرة جدًا ومنها قوله تعالى ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن

يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] . ومن هذا النوع شفاعة النبي ﷺ وهي شفاعات كثيرة ولكنها تندرج تحت نوعين رئيسيين: الشفاعة العامة، والشفاعة الخاصة، **أما الشفاعة العامة فهي أنواع:**

النوع الأول: الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وهذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ: «ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفعهم الله فيه» فإن هذه الشفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفعهم الله في ذلك.

النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وقد تواترت بها الأحاديث وأجمع عليها الصحابة.

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال ﷺ في أبي سلمة: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، وأفسح له في قبره، ونور له فيه واخلفه في عقبه».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه له ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه» فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص وحقيقتها أن الله عز وجل هو الذي يتفضل

على أهل الإخلاص ؛ فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود .

وأما الشفاعة الخاصة فهي أنواع :

النوع الأول : الشفاعة العظمى : وهي من المقام المحمود الذي وعده الله ؛ فيشفع إلى الله ليريح أهل الموقف .

الثاني : شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها .

الثالث : شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب وهذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ لا أحد يشفع في كافر أبدًا إلا النبي ﷺ في عمه خاصة .

* * *

(١٧) بَابُ الْهِدَايَةِ

٨٣- ثُمَّ الْهِدَايَةُ هِدَايَتَانِ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ لِلإِحْسَانِ
٨٤- وَتِلْكَ يَخْتَصُّ بِهَا الْحَمِيدُ يَهْدِي بِهَا لِلْحَقِّ مَن يُرِيدُ
٨٥- وَبَعْدَهَا هِدَايَةُ الإِرْشَادِ فِي سُورَةِ الشُّورَى أَتَتْ وَصَادِ

الهداية تنقسم إلى قسمين :

١- **هداية التوفيق** : وقد اختص الله عز وجل بها فلا يملكها إلا هو ، ولا تسأل إلا منه ، ولهذا نفاها الله عز وجل عن نبيه ﷺ بقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص : ٥٦] .

٢- **هداية الدلالة والإرشاد** : وهي المتمثلة في الدعوة إلى سبيل الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولهذا أثبتها الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ في سورة الشورى في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] . وكذلك أثبتها الله عز وجل لنبيه داود ﷺ في سورة « ص » في قوله تعالى : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا

بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: ٢٢].

(١٨) بَابُ الشِّرْكِ الأصغرِ

٨٦- وَالدِّين مَبْنَاهُ عَلَى الإِخْلَاص وَضِـدُّهُ الـشِّـرْكُ بِـلَا مَـنَـاصِ

٨٧- مِثْلُ صَلَاةِ ذَلِكَ المُرَائِي يُـطِيلُ حُسْنَهَا لأَجْلِ الرَّائِي

الواجب في عبادة الله عز وجل إفراده بها وإخلاصها له ، فإذا قرن به غيره صارت عبادة لغير الله عز وجل ، والشرك الأصغر وإن كان لا يخرج من الملة إلا أنه من أعظم الذنوب لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. قال شيخ الإسلام : والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر.

والشرك الأصغر قسمان : **خفي وجلي**؛ **فالجلي** : ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله أو قول ما شاء الله وشئت ، أو بالفعل مثل : الانحناء لغير الله تعظيمًا.

والخفي : ما كان في القلب ، مثل الرياء ، لأنه لا يبين ، إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله ، ويسمى أيضا « شرك السرائر ».

والرياء : مصدر راءى يرائي أي : عمل ليراه الناس ، ويدخل في

ذلك من عمل ليسمعه الناس ويقال له مُسَمِّع، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من راءى راءى الله به، ومن سَمَّعَ سَمَّعَ الله به».

٨٨- وَمِثْلُ إِقْسَامٍ بِغَيْرِ اللَّهِ   وَقَوْلِ لَوْلَا الْكَلْبُ والأَشْبَاهِ
٨٩- وَقَوْلُ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَا   تَجُوزُ لَا كَالوَاوِ إِذْ رَتَّبْتَا

الإقسام والحلف معناهما واحد وهو: تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بصيغة مخصوصة بالباء أو التاء أو الواو، وحروف القسم ثلاثة: الباء، والتاء، والواو، والحلف عبادة يجب إفراد الله عز وجل بها، فمن حلف بغير الله فقد جعله ندًّا لله عز وجل، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. (أندادًا) جمع ند، وهو الشبيه والنظير، والمراد هنا: أندادًا في العبادة وقال ابن عباس رضي الله عنه في الآية: «الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه، ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان،

لا تجعل فيها فلانًا ، هذا كله به شرك » . رواه ابن أبي حاتم .

والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة ، فهو شرك أكبر ، وإلا فهو شرك أصغر

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ مِن أن أحلف بغيره صادقًا » .

فالحلف كاذبا محرم من وجهين :

١- أنه كذب ، والكذب محرم لذاته .

٢- أن هذا الكذب قرن باليمين واليمين تعظيم الله عز وجل ، فإذا كان على كذب صار فيه شيء من تنقص الله عز وجل ، حيث جعل اسمه مؤكدًا لأمر كذب ، ولذلك كان الحلف بالله كاذبا عند بعض أهل العلم من اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار .

وأما الحلف بغير الله صادقًا ، فهو محرم من وجه واحد وهو الشرك ، **لكن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب ، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذبًا ، وأعظم من اليمين الغموس ، لأن الشرك لا يغفر** ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦] ، وما

أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك فهو أعظم الذنوب ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] . وسئل النبي ﷺ أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » ، والشرك متضمن للكذب ، فإن الذي جعل غير الله شريكا لله كاذب ، بل من أكذب الكاذبين ، لأن الله لا شريك له .

وكذلك قوله : « لولا البط في الدار لأتى اللصوص » البط : طائر معروف ، وإذا دخل اللص البيت وفيه بط ، فإنها يصرخ ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص .

وقوله : « وقول الرجل لصاحبه ، ما شاء الله وشئت » الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساويًا للمعطوف عليه ، وهو الله عز وجل حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية .

وعن قتيلة رضي الله عنها ، أن يهوديًا أتى النبي ﷺ ، فقال : إنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة ، « فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت » . رواه النسائي وصححه الألباني .

وقوله : « إنكم تشركون » أي : تقعون في الشرك أيها المسلمون

بقول : « ما شاء اللّه وشئت » . وبقول : « والكعبة » .

والشرك هنا : أنه حلف بغير الله ، ولم ينكر النبي ﷺ ما قال اليهودي ، بل أمرهم إذا حلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، فيكون القسم بالله ، وأمرهم أن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت فيكون الترتيب بثم بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق .

* * *

١٩- بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاء اللَّهِ

أسماء الله عز وجل : هي التي سمى بها نفسه ، أو سماه بها رسوله ﷺ ، واحترامها من احترام الله عز وجل .

وأسماء الله تنقسم إلى قسمين :

الأول : ما لا يصح إلا لله ، فهذا لا يسمى به غيره مثل : الله ، الرحمن ، رب العالمين ، وما أشبه ذلك .

الثاني : ما يصح أن يوصف به غير الله ، مثل : الرءوف والرحيم ، فإنه يسمى به غير الله إذ كان المقصود مجرد العلمية فقط دون الصفة ، لأنه لا يكون مطابقًا لاسم الله ، ولذلك كان في الصحابة من اسمه « الحكم » ولم يغيره النبي ﷺ ؛ لأنه لم يقصد إلا العلمية ، وفي الصحابة من اسمه « حكيم » وأقره النبي ﷺ .

٩٠- وَمَنْ تَسَمَّى قَاضِيَ الْقُضَاةِ أَوْ نَحْوَه مِنَ المُسَمَّيَاتِ

٩١- يَنْفِي كَمَالَ الذُّلِّ والتَّوْحِيدِ وَأَخْنَعُ الأَسْمَاءِ لِلْعَبِيدِ

قوله : « قاضي القضاة » ، قاضي : بمعنى حاكم ، والقضاة أي : الحكام ، و« ال » للعموم والمعنى : التسمي بحاكم الحكام ونحوه ،

مثل : ملك الأملاك ، وسلطان السلاطين ، وما أشبه ذلك ، مما يدل على النفوذ والسلطان ومن تسمى بهذا الاسم ، فقد جعل نفسه شريكًا لله ؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله سبحانه وتعالى .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى مالك الأملاك ، لا مالك إلا الله - قال سفيان : مثل شاهان شاه - وفي رواية أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه » .

وإذا كان هذا الاسم خبيثا وسببا لغضب الله ، فإن التسمي به من الكبائر .

٩٢- قَدْ غَيَّر النبيُّ مِنْ أَبِي الْحَكَمْ وَكُلُّ مَا عُبِّدَ لِلْخَلْقِ حَرُمْ

وعن أبي شريح رضي الله عنه أنه كان يكنى أبا الحكم ، فقال له النبي ﷺ : « إن الله هو الحَكَمُ ، وإليه الحُكْم » فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء ، أتوني ، فحكمت بينهم ، فرضي كلا الفريقين ، فقال : « ما أحسن هذا ! فما لك من الولد ؟ » قلت : شريح ، ومسلم ، وعبد الله ، قال : « فمن أكبرهم ؟ » قلت : شريح . قال : « فأنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره .

وقوله : يكنى أبا الحكم ، أي ينادى به ، والكنية : ما صدر بأب أو أم أو أخ أو عم أو خال وتكون للمدح كما في هذا الحديث ، وتكون للذم كأبي جهل ، وقد يكون لمصاحبة الشيء مثل أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد تكون لمجرد العلمية كأبي بكر رضي الله عنه ، وأبي العباس شيخ الإسلام رحمه الله ، لأنه ليس له ولد .

قوله : « إن الله هو الحكم وإليه الحكم » : أي المستحق أن يكون حاكمًا على عباده .

وقال ابن حزم : « اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، كعبد عمرو ، وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ، حاشا عبد المطلب » .

وعبد المطلب مختلف فيه لأن الرسول ﷺ قال :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »

ولكن الصواب تحريم التعبيد للمطلب ، فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب ، فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء ، فالنبي ﷺ أخبر أن له جدًا اسمه عبد المطلب ، فالرسول ﷺ يتكلم عن شيء قد وقع وانتهى ومضى ، فالصواب أنه لا يجوز أن يعبد لغير الله مطلقًا لا بعبد المطلب ولا غيره وعليه ، فيكون التعبد

لغير الله من الشرك .

٩٣- وَرَبُّنَا الْعَظِيمُ والسَّلَامُ فَلَا تَقُلْ عَلَى اللَّهِ السَّلَامُ

والسلام له عدة معان :

١- التحية ، كما يقال : سلام على فلان .

٢- السلامة من النقص والآفات .

٣- السلام اسم من أسماء الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر : ٢٢] ، وهو اسم ثبوتي سلبي ، فثبوتي : لأنه يراد به ثبوت هذا الاسم له ، والصفة التي تضمنها وهي السلامة ، وسلبي : لأنه يراد به نفيُ كل نقص أو عيب ، فلا يلحقه نقص في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه .

ومعنى : « فلا تقل على الله السلام » أي : لا تقل : السلام على الله ؛ لأن مثل هذا الدعاء يوهم النقص في حقه ، إذ لا يدعي الشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلا أن يتصف به ، والله سبحانه منزه عن صفات النقص .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة ، قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان ،

وفلان ، فقال النبي ﷺ : « لا تقولوا : السلام على الله ، فإن اللّه هو السلام ، لكن قولوا : التحيات لله ، والصلوات الطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين – فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء والأرض – أشهد أن إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو » (البخاري : ٨٣٥) .

وهذا نهي تحريم ، والسلام لا يحتاج إلى سلام ، وهو نفسه عز وجل سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب .

٩٤- وَلَا يُقالُ اغْفِرْ لي إِنْ أَرَدْتَا سُبحَانَهُ وَلْتعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم المسألة ، فإن الله لا مكره له » ولمسلم : « وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » .

والمحظور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة :

الأول : أنه يشعر بأن الله له مكره على الشيء وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه .

الثاني : أن قول القائل : إن شئت كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله فقد لا يشاءه لكونه عظيما عنده ، والله عز وجل لا يتعاظمه شيء أعطاه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « ليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » أي : ليسأل ما شاء من قليل أو كثير ولا يقل : هذا كثير لا أسال الله إياه .

الثالث : أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله ، كأنه يقول : إن شئت فعلت ، وإن شئت فلا تفعل ، ولهذا قال : « ليعظم الرغبة » ، أي : يسأل برغبة عظيمة ويجزم فيقول : اللهم اغفر لي ، اللهم ارحمني ، اللهم وفقني ، وما أشبه ذلك .

ولو قال : اللهم اغفر لي إن أردت وليس إن شئت ، فالحكم واحد ؛ لأن الإرادة هنا كونية ، فهي بمعنى المشيئة ، فالخلاف باللفظ لا يعتبر مؤثرًا بالحكم .

٩٥- وَلَا يُقالُ عَبْدِي وأَمَتِي وَقَلْ فَتَاي وَفَتَاتي وَاثْبُتِ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضيء ربك ، وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي وأمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي » .

والسيادة في الأصل : علو المنزلة ؛ لأنها من السؤدد والشرف ، والسيد : يطلق على معان ؛ منها : المالك ، والزوج ، والشريف المطاع .

وسيدي هنا مضافة إلى ياء المتكلم وليست على وجه الإطلاق فالسيد على وجه الإطلاق لا يقال إلا لله عز وجل قال ﷺ : « السيد الله » .

تنبيه : اشتهر عند بعض الناس إطلاق السيدة على المرأة ، فيقولون مثلا : هذا خاص بالرجال ، وهذا خاص بالسيدات ، وهذا قلب للحقائق ، لأن السادة هم الرجال ، قال تعالى : ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف : ٢٥] ، وقال : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء : ٣٤] . وقال ﷺ : « إن النساء عوان عندكم » أي : بمنزلة الأسير : وقال في الرجل : « راع في أهله ومسئول عن رعيته » . فالصواب أن يقال للواحدة : امرأة ، وللجماعة منهن : نساء .

وقوله ﷺ : « ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي » ، هذا خطاب للسيد أن لا يقول : عبدي أمتي لمملوكه ومملوكته ؛ لأننا جميعًا

عباد الله ونساؤنا إماء الله ، قال النبي ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » ، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتى في اللفظ .

٩٦- وَلَا يُرَدُّ بِاللَّهِ السُّؤَالُ بِوَجْهِهِ فِي الْجَنَّةِ السُّؤَالُ

السؤال من حيث هو مكروه ولا ينبغي لإنسان أن يسال أحدًا إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، ولهذا كان مما بايع النبي ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا حتى إن سوط أحدهم ليسقط منه وهو على راحلته فلا يقول لأحد : ناولنيه ، بل ينزل ويأخذه .

فالسؤال أصلًا مكروه أو محرم إلا لحاجة أو ضرورة ، فسؤال المال محرم ، فلا يجوز أن يسأل من أحد مالا إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك ، والرسول ﷺ حذر من السؤال ، وقال : « إن الإنسان لا يزال يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم » . وهذا يدل على التحريم إلا للضرورة وأما سؤال المعونة بالجاه والمعونة بالبدن فهذه مكروهة ، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

وأما إجابة السائل فلا يخلو السائل من أحد أمرين :

الأول : أن يسال سؤالًا مجردًا ، كأن يقول مثلا : يا فلان !

أعطني كذا وكذا ، فإن كان مما أباحه الشارع له فإنك تعطيه ، كالفقير يسأل شيئًا من الزكاة .

الثاني : أن يسأل بالله ، فهذه تجيبه وإن لم يكن مستحقا ، لأنه سأل بعظيم فإجابته من تعظيم هذا العظيم ، لكن لو سأل إثمًا أو كان في إجابته ضرر على المسئول ، فإنه لا يجاب .

مثال الأول[1] : أن يسألك بالله نقودًا ليشتري بها محرمًا كالخمر .

ومثال الثاني : أن يسألكَ بالله أن تخبره عما في سرك أو ما تفعله مع أهلك ، فهذا لا يجاب ؛ لأن في الأول إعانة على الإثم ، وإجابته في الثاني ضرر على المسئول .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل بالله فأعطوه ، ومن استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعو له حتى تروا أنكم قد كافئتموه » . رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح .

---

(١) من النوع الثاني ، أي : لو سئل إثمًا .

والأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثما أو ضررا على المسؤول ؛ لأن في إعطائه إجابة لحاجته وتعظيمًا لله عز وجل الذي يسأل به .

ولا يشترط أن يكون سؤاله بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله ، كما قال الملك الذي جاء إلى الأبرص ، والأقرع ، والأعمى : « أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا »

ومن قال : أعوذ بالله منك ، فإنه يجب عليك أن تعيذه ، لأنه استعاذ بعظيم ، ولهذا لما قالت ابنة الجون للرسول ﷺ : أعوذ بالله منك ، قال لها : « لقد عذت بعظيم ، الحقي بأهلك » .

لكن يستثنى من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليه ، فلا تعذه ، مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة فيقول : أعوذ بالله منك ، وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم ، فإستعاذ بالله منك ، فلا تعذه لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان ، ولأن الله لا يعيذ عاصيا ، بل العاصي يستحق العقوبة لا الانتصار له وإعاذته .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » رواه أبو داود ، واختلف في المراد

بذلك على قولين :

القول الأول : أن المراد لا تسألوا أحدًا من المخلوقين بوجه الله ، فإذا أردت أن تسأل أحدًا من المخلوقين ، فلا تسأله بوجه الله ، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة ، والخلق لا يقدرون على إعطاء الجنة .

القول الثاني : أنك إذا سألت الله من أمور الدنيا ، فلا تسأله بوجهه ، لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا ، فإن سألت الجنة ، وما يستلزم دخولها ، فلا حرج أن تسأل بوجه اللّـه .

والنبي ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] . قال : هذه أهون أو أيسر .

وقوله : « بوجه الله » فيه إثبات الوجه لله عز وجل ، وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف ، والسنة كما في الحديث السابق : « أعوذ بوجهك » ، وهو وجه حقيقي ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] . و ﴿ذُو﴾ صفة

لوجه ، فإذا كان الوجه موصوفًا ، بالجلال والإكرام ، فلا يمكن أن يراد به الثواب أو الجهة .

وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي قال : « إن الله خلق آدم على صورته » . فلا يراد به صورة تماثل صورة الرب عز وجل بإجماع المسلمين والعقلاء ، وإنما يراد به أحد معنيين :

الأول : أن الله خلق آدم على صورة اختارها وجعلها أحسن صورة في الوجه ، وعلى هذا فلا ينبغي أن يقبح أو يضرب لأنه لما أضافه إلى نفسه اقتضى من الإكرام ما لا ينبغي معه أن يقبح أو أن يضرب .

الثاني : أن الله خلق آدم على صورة الله عز وجل ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أضوء كوكب في السماء » ، ولا يلزم أن يكون على صورة نفس القمر ، لأن القمر أكبر من أهل الجنة ، وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعا ، وعرضه سبعة أذرع كما في بعض الأحاديث .

وقال بعض أهل العلم : على صورته ، أي : صورة آدم ، أي :

أن الله خلق آدم أول أمره على هذه الصورة ، وليس كبنيه يتدرج في الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة ، وهذا كما يصح أن يقال إن الله خلق جبريل على صورته ، ولكن الإمام أحمد رحمه الله أنكر هذا التأويل ، وقال هذا تأويل الجهمية ، ولأنه يفقد الحديث معناه ، وأيضا يعارضه اللفظ الآخر المفسر للضمير وهو بلفظ : على صورة الرحمن .

وكلمة « السؤال » الأولى جمع تكسير للسائل فهي بتشديد الهمزة ، وبينها وبين « السؤال » الثانية المخففة جناس ناقص .

٩٧- فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا يَسَّرَهْ وَاللَّهَ أَسْأَلُهُ أَنْ يَنْشُرَهْ

٩٨- وَأَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ وَنَافِعًا مُخْتَصَرًا فِي وَجْهِهِ

٩٩- وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ والتَّسْلِيم عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الكَرِيمِ

١٠٠- مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَكُلِّ تَابِعٍ وَمُؤْمِنٍ بِهِ

كلمة « **لوجهه** » الأولى على حقيقتها صفة الله عز وجل ، و« وجهه » الثانية معناها في أبواب التوحيد التي وجه هذا المتن لبيانها ، وبينهما جناس تام .

وبهذا يتم ما أردنا شرحه ، وقد وفقنا الله لجمعه من كلام أهل

العلم الكرام، في توحيد الله عز وجل، وكما بدأنا بحمده عز وجل، نختم بذلك أيضًا، إذ له الحمد في الأولى والآخرة، فكل خير منه وحده.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وعلى كل من آمن به واتبع هديه.

وجمعه: محمد بن عيد الشعباني

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

* * *